توفه يانسون

كتاب الصيف

رواية

ترجمة: سمير طاهر



إهداء لـ ..

شفيق

ش ش ش

كتاب الصيف



كتاب الصيف - رواية

تأليف: توفه يانسون

ترجمها عن السويدية: سمير طاهر

Sommarboken

Tove Jansson

لوحة الغا

اللوحات

4 :ISBN

الطبعة الأ

Cover i

Illustrat

دار ممدو

سوريا -

هاتف-فا

جوال: 37

البريد الإ

الموقع الإ

dwanPH

توفه يانسون

مكتبة | 819
سُر مَن قرأ

كتاب الصيف

رواية

ترجمها عن السويدية:
سمير طاهر

This work has been published with the financial assistance of FILI – Finnish Literature Exchange







صباح السباحة

كان صباحاً باكراً شديد الحرارة في تمّوز/ يوليو، وكانت قد أمطرت في الّليل: البخار يتصاعد من الجبل الصخريّ العاري، لكنّ الأرض الطحلبيّة، والمنخفضات بين الكتل الصخريّة، كانت كلّها غارقةً في الرطوبة، وقد غرقت ألوانها جميعها أيضاً، وتحت الشرفة، كان الغطاء النباتيّ الذي يظلّله الصباح مكوّناً من الغابة المطيرة، والأوراق، والزهور الكثيفة والخبيثة، التي كادت تتكسّر تحت قدميها، لولا حذرها في المشي، وهي تفتّش بعينيها، واضعةً يدها على فمها، خائفةً طيلة الوقت من أن تفقد توازنها.

- «ماذا تفعلين؟». سألت صوفيا الصغيرة.

- «لا شيء». ردّت جدّتها. «أعني». أضافت غاضبةً: «إنّني أفتّش عن أسناني الصناعيّة!».

هبطت الطفلة من الشرفة، وسألت بنبرةٍ عمليّةٍ: «أين أضعتِها؟».

- «هنا». قالت: «وقفتُ هناك بالضبط، وسقطَتْ منّي في مكانٍ ما بين زهور الفوانيا».

وراحتا تفتّشان معاً.

«دعيني». قالت صوفيا: «أنت لا يمكنكِ الوقوف على قدميكِ؛ تزحزحي قليلاً».

خاضت صوفيا تحت السقف المزَهَّر للبستان، وزحفت بين الجذوع الخضراء، هنا في الأسفل كان الإحساس منعشاً. إنّها أرضٌ سوداءُ وطريّةٌ، وهناك شاهدت الأسنان ملقاةً، بيضاء ووردّية، كانت أسناناً قديمةً تسع فماً بكامله. «لقد وجدتها!». صرخت الطفلة، ونهضت واقفةً: «هيّا ضعيها في فمك».

- «لكنْ لا تنظري». قالت الجدّة: «هذا شأنٌ خاصّ».

فأبقت صوفيا الأسنان خلْف ظهرها.

- «أريد أن أنظر، وأنتِ تضعينها في مكانها». قالت.

وضعت الجدّة أسنانها في التجويف، وفعلت ذلك بسلاسةٍ تامّةٍ، ولم تكن ثمّة حاجةٌ لقول شيء.

- «متى ستموتين؟». سألت الطفلة.

وأجابت: «قريباً، لكنّ هذا ليس من شأنكِ لا من قريب، ولا من بعيد».

- «ولماذا؟». سألت الطفلة.

لم تردّ، وخرجت تمشي في الجبل، ومنه هبطت إلى المنخفض.

- «ذلك ممنوع!». صاحت صوفيا.

ردّت العجوز بازدراء: «أعرف؛ لا أنتِ ولا أنا مسموح لنا بالمضيّ إلى الإفجيج، ولكنْ مع ذلك سنفعل هذا الآن؛ لأنّ أباكِ نائمٌ، ولا يعلم».

مشَتا في الجبل، وكان الطحلب زلقاً، وبلغت الشمس علوّاً جيّداً في السماء، والبخار يتصاعد من كلّ شيءٍ، والجزيرة كلّها ملأى بالضباب المشمس، وفي غاية الجمال.

- «هل تراهم يصنعون حفرة؟». سألت الطفلة بلطف.

- «نعم». أجابت: «حفرة كبيرة». وأضافت بخبثٍ: «كبيرة بحيث تكفي لنا جميعاً».

- «ولماذا؟». سألت الطفلة.

واصلتا السير باتّجاه اللسان الصخريّ.

- «لم أصل قطّ إلى هذا البعد من قبل». قالت صوفيا: «هل فعلتِ أنتِ؟».

- «كلا». ردّت جدّتها.

واستمرّتا بالسير حتّى وصلتا إلى اللسان الصخريّ؛ حيث يغرق الجبل في مدرّجاتٍ كلّ واحدةٍ منها أكثر عتمةً من الأُخرى، وكلّ خطوةٍ هابطةٍ نحو العتمة كانت محفوفةً بحاشيةٍ خضراء من العشب البحريّ تدور ذهاباً وإياباً مع حركة الماء.

- «أريد أن أسبح». قالت الطفلة متوقّعةً اعتراضاً لم يأتِ؛ فخلعت ثيابها ببطءٍ وتوتّرٍ، وهي تنظر إلى جدّتها (أنْ تسمح الجدّة بحدوث أشياء من دون اعتراضٍ لهو أمرٌ يدعو إلى الشكّ)، فأدخلت ساقيها في الماء، وقالت: «إنّه بارد».

- «بالطبع هو بارد». ردّت العجوز، وأفكارها سارحةٌ في شأنٍ آخر: «وماذا كنتِ تتوقّعين؟».

انزلقت الطفلة حتّى خصرها، وانتظرت، وهي تحسّ بأنّ الحدث مُثير.

«اِسبحي». قالت جدّتها: «أنتِ تستطيعين السباحة».

فكّرت صوفيا: «إنّه عميق! نسيت جدّتي أنّني لم أسبح قطّ في مياهٍ عميقةٍ من دون أن يكون أحد آخر معي»؛ لهذا صعدت ثانيةً إلى اليابسة، وجلست على الجبل، وقالت: «يبدو أنّ الطقس سيكون جميلاً اليوم».

كانت الشمس قد ارتفعت، فتلألأ كلٌّ من الجزيرة والبحر، وصار الهواء بالغ الخفّة.

- «أستطيع أن أغطس». قالت صوفيا: «هل تعرفين كيف تغطسين؟».

ردّت جدّتها: «بلى أعرف؛ تسترخين، ثمّ تتأهّبين، فتغطسين فحسب، وأن تحسّي بأغصان عشب البحر على امتداد ساقيكِ، وتريها بلونها البنيّ في الماء الصافي، وحين ترتفعين إلى الأعلى يكون الماء أكثر ضياءً، وترين فقاعاتٍ، وأن تنزلقي، وأنتِ تحبسين أنفاسكِ، وتستديرين، وتصعدين إلى أعلى، وأن تدعي نفْسكِ تصعدين، ثمّ تطلقين الزفير، ثمّ تطفين فوق الماء، تطفين وحسب».

- «وأبقي عيني مفتوحةً طوال الوقت؟». قالت صوفيا.

- طبعاً؛ لا أحد يغطس من دون أن يفتح عينيه.

- «هل تصدّقين أنّني أستطيع أن أفعل هذا من دون أن أريكِ؟». سألت الطفلة.

- «نعم، نعم». ردّت الجدّة: «ارتدي ثيابكِ الآن؛ لكي يتسنّى لنا أن نعود إلى البيت قبل أن يستيقظ».

- «ها هو الإرهاق الأوّل يقترب». فكّرت: «عندما نصل إلى البيت، عندما نعود، أظنّ أنّني سوف أنام لبعض الوقت، ويجب أن أتذكّر أن أخبره أنّ هذه الطفلة ما تزال تخاف المياه العميقة».

نور القمر

ذات مرّةٍ في شهر نيسان/ أبريل، كان القمر بدراً، والجليد يغطّي البحر، فاستيقظت صوفيا، وتذكّرت أنّهم عادوا إلى الجزيرة، وأنّ لديها سريرها الخاصّ بها؛ فأمّها قد توفّيت، وكانت النار ما تزال تشتعل في الموقد، وتتماوج في السقف، وقد عُلِّقت الأحذية لتجفيفها، فنزلت إلى الأرضيّة التي كانت شديدة البرودة، ونظرت من خلال النافذة، فكان الجليد أسْودَ، ورأت وسْطه باب الموقد مفتوحاً، والنار مشتعلة، وكان للموقد بابان قريبان من بعضهما، ومن النافذة الأُخرى كانت النار تشتعل داخل الأرض، وخلال النافذة الثالثة رأت كامل الانعكاس المزدوج للغرفة، وصناديق أمتعةٍ، وتوابيتَ، وأدراجاً مفتوحةً ممتلئةً بالطحلب، والثلج، والعشب الجافّ، وكان كلّ شيءٍ مفتوحاً، وقاعُهُ ظِلٌّ أسْود كالفحم، ورأت طفلين على الجبل، وشجرة سَمْن تنمو بينهما، فيما كانت السماء غامقة الزرقة وراءهما.

استلقت على سريرها، وراحت تنظر إلى النار المتراقصة في السقف، وفيها رأت جزيرةً تقترب إلى الكوخ، وصارت أقرب فأقرب. كانوا ينامون عند مرج الشاطئ، وعلى الغطاء بقع ثلجيّة، وتحتهم ذلك الجليد المظلم، وراحوا ينزلقون، وببطءٍ تامٍّ انفتح في الأرض ممرّ القوارب، وراحت

حقائبهم كلّها تسير في نور القمر المنعكس على الماء، وكانت كلّ حقيبةٍ منها مفتوحةً وممتلئةً بالظلام والطحلب، وهي ترحل، ولا تعود أبداً.

مدّت صوفيا يدها، وسحبت ضفيرة جدّتها بكلّ حذرٍ، فاستيقظت الجدّة على الفور. «اسمعي». همست صوفيا: «رأيت شعلتين في النافذة، لماذا هما شعلتان وليست واحدة؟».

فكّرت الجدّة قليلاً، وأجابت: «ذلك لأنّ لدينا نافذةً مزدوجة».

بعد قليلٍ سألت صوفيا: «هل أنتِ متأكّدةٌ من أنّ الباب مغلق؟».

- «إنّه مفتوح». ردّت جدّتها: «إنّه مفتوحٌ على الدوام، يمكنكِ النوم بكلّ هدوء».

التفّت صوفيا بالغطاء، وتركت الجزيرة بأكملها تطفو على الجليد، وتواصل سيرها صوب الأفق، وتماماً قبل أن تغفو، صعد والدها، وألقى مزيداً من الحطب في الموقد.



غابة الأشباح

في الطرف الخارجيّ من الجزيرة، وراء الجبل، كان ثمّة حزامٌ من غابةٍ ميتةٍ، كانت تقع في مجرى الريح، ولعدّة مئاتٍ من السنين حاولت أن تنمو عكس اتّجاه العواصف، فاكتسبت بذلك شكلها الخاصّ؛ فلو مرّ المرء من هناك مجذّفاً بقاربه، فسيرى بوضوحٍ أنّ كلّ شجرةٍ قد مدّت نفسها لكي تتجنّب الريح، وقرفصت وعقَدت نفسها، وأنّ عِدّةً منها قد زحفت محاولةً الابتعاد، وبالتالي تكسّرت جذوعها، وتعفّنت، وانطرحت أرضاً، فكانت الأشجار الميتة تسند، أو تحطّم تلك التي ما تزال قممها مخضرّةً، لتكوِّن جميعها كتلةً مضفورةً من الخضوع العنيد. كانت الأرض لامعةً بفعل الأوراق الإبريّة البنّيّة لشجر الصنوبر، عدا الأماكن التي فضّلت فيها أشجار التنوب الزحف عوضاً عن الوقوف، وقد نمت خضرتها في نوعٍ من الغضب المُترف، نديّةً وبرّاقةً كما في دُغل. كانت الغابة تدعى غابة الأشباح، وقد شكّلت نفسها عبْر مجهودٍ شاقٍّ وبطيء، وكان التوازن بين البقاء والانقراض هشّاً للغاية إلى درجة أنّه لم يكن يمكن التفكير حتّى بأصغر تغييرٍ؛ ففتْحُ فُرجةٍ مثلاً، أو تفريق تلك الجذوع الغارقة، كان يمكن أن يتسبّب في دمار غابة الأشباح، فلم تُصرَّف مياه المستنقع، ولم يُزرع شيءٌ وراء هذا السور الكثيف الواقي، وعميقاً تحت الأجَمة، في

تلك التجاويف التي لم تصل إليها الشمس قطّ، عاشت طيورٌ وحيواناتٌ صغيرةٌ، وحين يكون الطقس هادئاً كان يمكن سماع حفيف أجنحةٍ، أو وثبات أقدامٍ حيوانيّةٍ مسرعة؛ تلك الحيوانات لم تُظهِر نفسها قطّ.



في أوّل العهد بالجزيرة، عملت الأسْرة على أن تجعل غابة الأشباح أفظع ممّا كانت عليه؛ فجمعوا جذوع الأشجار وشجيرات العرعر في الجزر المحيطة بهم، وحملوها بالقارب إليهم، فكانت هذه الأشياء نماذج ضخمة لجمالٍ أبيضَ فوّاح، نماذج ما لبثت أن سُحِقَتْ بعد ذلك ليصنعوا منها طُرقاً عريضةً فارغةً امتدّت حتّى المكان الذي يقفون فيه الآن، ولم تكن الجدّة راضيةً عن ذلك، لكنّها لم تقل شيئاً، وبعد ذلك نظّفت القارب، وانتظرت حتّى سئموا من غابة الأشباح، وعندها دخلتها بمفردها، ومن أجل نفسها، فزحفت ببطءٍ مارّةً بالينبوع ونباتات السرخس، وعندما أحسّت بالتعب استلقت على الأرض، وراحت تنظر إلى الأعلى خلال الشبكة الرماديّة من الأغصان والأشنات، وحين سألوها أين كانت، أجابتهم بأنّها ربّما غفت لبعض الوقت.

فيما عدا غابة الأشباح، صارت الجزيرة متنزّهاً يحفّه الترتيب والجمال، فقد نظّفوها حتّى من أصغر غصنٍ، بينما كانت الأرض ما تزال مغمورةً بمطر الربيع، وبعد ذلك صنعوا مساراتٍ ضيّقةً تربط بين الألسنة الصخريّة وصولاً إلى الشاطئ الرمليّ، ولم يكن يمشي في الأرض الطحلبيّة سوى المزارعين وضيوف الصيف، ولم يعرفوا، ولم يكن بالإمكان تكرار إخبارهم، بأنّ الطحلب فائق الهشاشة، وعندما يدوس أحدٌ عليه في المرّة الأولى فإنّه سينمو من جديدٍ عند المطرة الأولى، وفي الدعسة الثانية لا يعاود النموّ؛ أمّا عند الدعسة الثالثة على الطحلب، فإنّه سيموت، الأمر ذاته الذي يحدث لِبطّ العَيدر؛ ففي المرّة الثالثة التي يُطرد فيها من بيوته لا يعود إليها أبداً. في وقتٍ ما خلال شهر تموز/ يوليو اعتاد الطحلب أن يتزيّن بعشبٍ خفيفٍ وطويل الأوراق، وكانت مجموعاتٌ صغيرةٌ من الزهور تتفتّح على المسافة نفسها تماماً من الأرض، وتتأرجح معاً في الريح، فتصبح الجزيرة كلّها مغطّاةً بحجابٍ مغمورٍ بحرارة الجوّ، بالكاد يمكن

رؤيته، ويختفي بعد أسبوع؛ لا شيء يمكن أن يعطي انطباعاً أقوى من هذا عن البرّيّة والطبيعة البِكْر.

لكنّ الجدّة كانت تجلس في غابة الأشباح لتنحت من الخشب حيواناتٍ غريبة، وكانت تقطع الأغصان والأعواد الخشبيّة، وتعطيها شكل مخالبَ ووجوهٍ، إلّا أنّ مظهرها كان يشير إلى شيءٍ ما، متعمّدةً أن تجعله غير واضحٍ تماماً، واحتفظت تلك الحيوانات بروحها الخشبيّة، وكان لانحناءات أعمدتها الفقريّة وسيقانها شكلٌ خاصٌّ عصيٌّ على الفهم، وصار جزءاً من الغابة المتحلّلة، وأحياناً كانت الجدّة تقطع هذه الأشكال مباشرةً من جذعٍ، أو من أصل إحدى الأشجار، وصارت حيواناتها الخشبيّة أكثر فأكثر، جالسةً في الأشجار، معلّقةً، أو منفرجة السيقان، مستريحةً على الجذوع، أو منغرسةً في الأرض حين تكون قد غرقت، وأذرعها ممدودة في مياه المستنقع، أو مستلقيةً بهدوءٍ لتلتفّ وتنام عند أحد الجذور. أحياناً كانت هذه الأشكال عبارة عن وجهٍ جانبيٍّ في الظلّ، وأحياناً كانت شكلين، أو ثلاثة معاً، مشتبكةً في معركةٍ، أو في حُبّ. لم تتعامل الجدّة سوى مع الخشب القديم الذي استقرّ شكله الخارجيّ؛ أي: إنّها كانت ترى وتنتقي ذلك الخشب الذي يعبّر عمّا تريد.

ذات مرّةٍ عثرت الجدّة في الرمل على فقرات ظهرٍ بيضاء اللون، فعملت عليها بمشقّةٍ لكي تجعلها أكثر جمالاً، لكنْ بلا جدوى، فوضعتها كما هي في غابة الأشباح، ووجدت عظاماً كثيرةً، بيضاء، أو رماديّةً، مغسولة كلّها بمياه البحر.

- «ما هذا الذي تفعلينه؟». سألتها صوفيا.

أجابت: «أنا ألعب».

دخلت صوفيا غابة الأشباح زاحفةً، ورأت كلّ شيءٍ صنعته جدّتها،

وسألت: «هل هذا معرض منحوتات؟». لكنّ الجدّة قالت: إنّ هذا لا علاقة له بالنحت، فالنحت شيءٌ مختلفٌ تماماً.

بدأتا تجمعان العظام معاً في الشواطئ.

البحث والالتقاط عملٌ له خصوصيّته؛ حيث يجعلك لا ترى سوى ما تبحث عنه: عند قطف نبات التوت البريّ الأحمر لا ترى سوى الأشياء الحمراء، وعند البحث عن العظام لا ترى سوى الأشياء البيضاء، وأينما يذهب المرء لا يرى سوى العظام، وهذه -أحياناً- تكون رفيعةً كالإبرة، ودقيقةً جدّاً، وهشّةً، ويجب حملها بعنايةٍ فائقة، وأحياناً تكون عظام فخذٍ ضخمة وخشنة، أو عظام قفصٍ صدريٍّ، مدفونةً في الرمل مثل عوارض خشبيّةٍ في حطام سفينة، وللعظام آلاف الأشكال، ولكلٍّ منها بنيتها الخاصّة.

وضعت صوفيا وجدّتها ما عثرتا عليه كلّه في غابة الأشباح، وعادةً ما تذهبان إلى هناك عند الغروب، فزيّنتا الأرض تحت الأشجار بالعظام، فصارت للأرض زخرفة عربيّة بيضاء تشبه لغة الإشارة، وعندما أتمّتا صُنع المنظر بقيتا تتحدّثان قليلاً، وتصغيان إلى حركة الطيور في داخل الأجَمة؛ فمرّةً حلّق دجاجٌ بريٌّ، ومرّةً شاهدتا بومةً صغيرةً جدّاً، جالسةً على غصنٍ في صورةٍ ظِلّيّةٍ وسط سماء المساء؛ لم يحدث قطّ من قبل أن زارت الجزيرة بومة.

ذات صباحٍ، وجدت صوفيا جمجمةً لحيوانٍ كبيرٍ خاليةً من العيوب، عثرت عليها بمفردها، وظنّت الجدّة أنّ الجمجمة تعود إلى حيوان الفقمة، فأخْفتاها في سلّةٍ، وانتظرتا حتّى المساء، وجاء غروب الشمس بألوانه الحُمْر، فتدفّق الضوء إلى داخل الجزيرة، وصارت حتّى الأرض حمراء، فوضعتا الجمجمة في غابة الأشباح، وظلّت هناك تضيء بأسنانها كلّها.

فجأةً! أخذت صوفيا بالصراخ: «أبعديها! أبعديها!». ضمّتها جدّتها

إلى حضنها على الفور، لكنّها فكّرت بأنّه من الأفضل عدم قول شيء، وبعد قليلٍ غفت صوفيا، فجلست الجدّة، وراحت تفكّر بصنع بيتٍ من علب الكبريت في الشاطئ الرمليّ، وسقيفة للعنب البريّ وراء البيت، ويمكن أيضاً صنع رصيفٍ مائيٍّ ونافذة، من الورق الفضّيّ.

وهكذا كان على الحيوانات الخشبيّة أن تختفي في غابتها، وغرقت الزخارف العربيّة في الأرض، وقد جعلها الطحلب خضراء اللون، وانزلقت الأشجار إلى عمقٍ أكبر، ومع مرور الوقت استقرّت بعضها في أحضان بعض، وغالباً، كانت الجدّة تدخل غابة الأشباح بمفردها عند أوقات الغروب، لكنْ في منتصف النهار كانت تجلس على سلّم الشرفة، وتصنع من لحاء الشجر ألعاباً على شكل قوارب.



الطائر النقّاق

ذات صباحٍ، قُبيل الفجر، أصبح الجوّ بارداً في غرفة الضيوف، فسحبت الجدّة بساطاً عتيقاً وتغطّت به، ثمّ أنزلت عن الجدار بضعة معاطف مطريّة، لكنّ هذا كلّه لم يساعد كثيراً، فافترضت أنّ هذا كان بسبب المستنقع. عجيبٌ أمر المستنقعات! تملؤها بالأحجار، والرمل، والجذوع القديمة، وتصنع فوق هذا كلّه مَحْطبةً، ولكنّها مع ذلك تظلّ تتصرّف كمستنقعات؛ في أوائل الربيع تراها تتنفّس الجليد، وتصنع ضبابها الخاصّ كتذكيرٍ بالزمن الذي كانت فيه تمتلك ينابيع سوداء، ونباتات سُعد لم تمسّها يد. نظرت الجدّة إلى الموقد النفطيّ الذي انطفأ، وإلى الساعة التي كانت تشير إلى الثالثة، ثمّ نهضت، وارتدت ثيابها، وتناولت العصا، ونزلت السلالم الحجريّة؛ كانت ليلةً شديدة الهدوء، وكانت لديها رغبة في الإصغاء إلى طيور البطّ طويل الذيل.

لم يغمر الضباب المَحْطَبة فقط، إنّما الجزيرة كلّها، وساد ذلك الهدوء الخاصّ الذي يكون عند البحر في أوائل شهر أيّار/ مايو. كانت قطرات الماء تتساقط من أغصان الأشجار، مسموعةً بوضوحٍ في ذلك الصمت، ولم يكن قد نبت شيءٌ بعد، وبقع الثلج ما تزال موجودةً في الجانب الشماليّ، لكنّ مناظر الطبيعة كانت ممتلئةً بالتوقّعات. سمعت طيور

البطّ طويل الذيل تنادي، كانت هذه الطيور تدعى الطيور النقّاقة؛ بسبب صوت ندائها الذي يشبه ثرثرةً متباعدةً وثابتةً، وكانت دائماً بعيدةً جدّاً، دائماً في عمق السماء، فلم تكن هذه الطيور تُرى قطّ، وكانت سريّة مثل طير السمّان، سوى أنّ الأخير وحيدٌ، ويختفي في المروج؛ إذْ إنّ الطيور النقّاقة توجد خارج أقصى الجزر في حشود أعراسٍ ضخمة، تغنّي طوال ليالي الربيع.

صعدت الجدّة الجبل، وأخذت تفكّر بالطيور بمختلف أشكالها، وتراءى لها أنْ ليس هنالك حيوانات أُخرى لها ما للطيور من قدرةٍ على توكيد الأحداث دراميّاً وإكمالها، كتبدّلات الطقس والفصول، والتغيّرات التي تجري للناس أنفسهم، وفكّرت بالطيور المهاجرة، وبالسمّان في أمسيةٍ صيفيّةٍ، وبطائر الوقواق، أجل طائر الوقواق، وتلك الطيور الكبيرة الباردة التي تبحر وتستكشف، وتلك الصغيرة جدّاً التي تأتي معاً في زيارةٍ سريعةٍ أواخر الصيف، وتطير دوّارةً في السماء، مستديرةً كالكرة، بلهاء وغير خائفة، وكذلك طيور السنونو التي تبارك فقط البيوت السعيدة. من الغريب أنّ الطيور الحرّة أصبحت رموزاً قويّةً! أو ربّما لا، وبالنّسبة إلى الجدّة فإنّ طيور البطّ طويل الذَّيل تعني الأمل والتجدُّد. سارت بحذرٍ على الجبل على قدميها المتصلّبتين، وحين وصلت إلى غرفة اللعب طرقت على النافذة، فاستيقظت صوفيا على الفور وخرجت.

- «أنا ذاهبةٌ لأستمع إلى صوت البطّ طويل الذَّيل». قالت الجدّة.

ارتدت صوفيا ثيابها، وذهبتا معاً. في الجانب الشرقيّ كانت الصخور محاطةً بحافةٍ ثلجيّةٍ، ولم يكن لدى أحدٍ الوقتُ الكافي لجمع الأخشاب الطافية، فعمت الفوضى الشاطئ كله، وكانت هناك كتلةٌ منتفخةٌ واسعةٌ من الألواح الخشبيّة المربوطة إلى بعضها، والعشب البحريّ، والقصب،

إلى جانب جذوع أشجارٍ مقطّعةٍ، وصناديقَ خشبيّةٍ متآكلةٍ انقلبت إلى الخارج، وإلى الداخل بين أسلاكها الفولاذيّة، وفوقها جميعاً امتدّ جذعٌ مقطوعٌ ضخمٌ قد اسْودَّ من النفايات النفطيّة، وكانت قطع الّلحاء الخفيفة، والشظايا التي خلّفتها العواصف السابقة، تتحرّك في الماء خارج الحافّة الثلجيّة، وتنسحب ببطءٍ إلى الخارج، ثمّ تعود إلى الداخل، وكانت طيور البطّ طويل الذَّيل تصيح طيلة الوقت بصوتٍ بعيدٍ وموسيقيّ.

- «إنّها تتزاوج الآن». قالت صوفيا.

أشرقت الشّمس، وتوهّج الضّبابُ للحظةٍ، ثمّ اختفى، وفوق بلاطةٍ تستقرّ في الماء كان هناك طيرٌ نقّاقٌ، وكان مبتلّاً وميتاً، وبدا كأنّه كيسٌ بلاستيكيٌّ مُمزّقٌ، فأوضحت صوفيا بأنّ هذا غرابٌ كبيرٌ في السنّ، لكنّ الجدّة لمْ توافقها.

قالت صوفيا: «ولكنّه الربيع الآن، وهذه الطيور لا تموت في هذ الفصل من السّنة؛ فهي جديدةٌ، وقد تزوّجت حالاً، أنتِ من قال هذا».

- «أجل، أجل». قالت الجدّة: «على كلّ حال لقد مات هذا الطّير الآن».

- «كيف مات؟!». صاحت صوفيا، وقد تملّكها الغضب.

- «مات بسبب حُبٍّ تعِس». أوضحت جدّتها: «لقد غنّى ونَقَّ طوال الّليل من أجل أُنثاه النقّاقة، ثمّ جاء طيرٌ آخر وأخذها، وعندئذٍ أدْخل رأسه تحت الماء، وظلّ طافياً، والماء ينقله بعيداً».

- «هذا غير صحيح!». صرخت صوفيا، وقد بدأت تبكي: «البطّ طويل الذَّيل لا يمكن أنْ يغرق، أخبريني بحقّ».

عندها أخبرتها الجدّة: «ببساطة، اصطدم رأس الطّير بصخرةٍ، فغنّى

ونَقّ بلا انقطاعٍ إلى درجة أنّه لم يرَ طريقه، فحدث ما حدث عندما كان الطّير في أقصى سعادته».

- «كان هذا أفضل». قالت صوفيا: «هل ينبغي أنْ ندفن الطّير؟».

ردّت الجدّة: «هذا غير ضروريّ؛ سيأتي المدُّ فيدفن الطّيرُ نفسَه فيه، فطيور البحر تُدفن بالطريقة نفسها التي يُدفن فيها البحّارة».

واصلتا السّيْر، وهُما تتحدّثان عن دفن البحّارة في البحر، وكانت طيور البطّ طويل الذَّيل تشْدو بنغمتين، وبثلاث نغماتٍ، وبنغماتٍ أطول من ذلك، وكان الّلسان الصخريّ المقابل للجزيرة الصغيرة قد تغيّر كلّيّاً؛ بسبب العواصف الشتائيّة. في السابق لم يكن يوجد في هذا المكان سوى الصخور، والآن صار الشاطئ كلّه رمليّاً.

- «يجب أنْ نُنقذه». قالت الجدّة، ونخزت الرّمل بعصاها: «إذا ارتفع منسوبُ المياه في البُحيرة، وهبّت الرّيحُ من الشّمال، فسوف يزول كلّ شيءٍ من جديد».

ورقدت على طولها فوق بقايا قصبٍ ابيضَّ لونُه من القِدَم، وراحت تتأمّل السّماء، ورقدت صوفيا إلى جانبها، وكان الجوّ يزداد دفئاً باستمرار، وبعد حينٍ من الوقت سمعتا ذلك الصوت المخيف والبارد للطّيور المهاجرة، وهي تتابع رحلتها، وشاهدتا خطّ الطّيور، وهو يعبُر الجزيرة باتّجاه الشّمال الشّرقيّ.

- «وماذا سنفعل الآن؟». سألت صوفيا.

اقترحت عليها الجدّة أنْ تمشي حول الّلسان الصخريّ، وترى ما الذي انجرف إلى الشاطئ.

- «هل أنتِ متأكّدةٌ من أنّكِ لنْ تشعري بالملل؟». سألتها صوفيا.

- «كلّ التأكّد». ردّت الجدّة، وانقلبت على جنبها، ووضعت ذراعها

على رأسها. بين كُمّ القميص، والقبّعة، والقصب الأبيض كان بإمكان الجدّة أنْ ترى مثلّث السّماء، والبحر، والرّمل، ذلك المثلّث شديد الصِّغَر، وقُرْبها في الرّمل كانت هناك ساق نباتٍ جافّة، وقد علقت بين أوراقها الشبيهة بالمنشار ريشةٌ صغيرةٌ لبطّةٍ من البطّ طويل الذَّيل، فتمعّنت جيّداً في شكل السّاق، وفي العود الطّويل الرّفيع في المنتصف حول الرّيشة الصغيرة، الذي كان بنيّاً فاتحاً، وأخفّ من الهواء، ثمّ يغمق ويلمع كلّما اقترب من الطرف المدبّب الذي ينتهي بمنحنى صغيرٍ، لكنّه مفعمٌ بالحيويّة. لم تكن الرّيشة الصغيرة تشعر بنسمات الهواء التي تحرّكها، ولَحظت الجدّة أنّ السّاق والرّيشة موجودتان في المسافة المناسبة لنظرها تماماً، وتساءلت فيما إذا كانت الرّيشة قد علقت في السّاق الآن في الرّبيع، وفي أثناء الّليل ربّما، أم إنّها كانت هناك طوال الشّتاء، فنظرت إلى المنخفض المدوّر المحفور في الرّمل حول نهاية السّاق، وإلى الحزمة التي كوّنتها أعشابُ البحر، فصارت ضفيرةً تلتفّ حول الجذْع، وقُربها تماماً كانت هناك قطعةٌ من لحاء شجرةٍ، وإذا ما أمعن المرءُ النّظر فيها طويلاً، فستنمو وتصير جبلاً قديماً جدّاً، وكان للجزء العُلْويّ فوّهاتٌ وحُفَرٌ شبيهةٌ بالدوّامات. كان الّلحاء جميلاً وباعثاً على التأمّل، يستلقي على ظلّه فوق الرّمل كنقطةٍ وحيدةٍ يستند إليها، وكان الرّمل خشناً من الحبوب التي تملأُه، ونظيفاً، ويبدو رماديّاً تقريباً في نور الصّباح، وكانت السّماء فارغةً تماماً، وكذلك البحر.

عادت صوفيا راكضةً، وصرخت: «وجدتُ عَربة يَد، عَربة يَدٍ كبيرةً، إنّها لِسفينةٍ ما! إنّها طويلةٌ مثل قارب!».

قالت الجدّة: «غير معقول!».

كان مهمّاً للجدّة ألّا تنهض بسرعةٍ كبيرةٍ؛ ولهذا كان الوقت الكافي كي تلْحظ السّاق في الرّمل تماماً في الّلحظة التي تركت فيها الرّيشة الصّغيرة

مكانها الحصين، وجاءها نسيم الصّباح الخفيف ليحملها بعيداً، فخرجت من مجال رؤيتها، وحين نهضت الجدّة على قدميها صَغُر المشهد، فقالت: «لقد رأيتُ ريشةً، ريشةً صغيرةً لطيرٍ نقّاق».

سألت صوفيا: «أيُّ طيرٍ نقّاق؟».

ذلك لأنّها كانت قد نسيت الطّائر الذي مات بسبب الحُبّ.



برنيسه

ذات صيفٍ كان لدى صوفيا ضيف، حيث زارتها أوّل صديقةٍ لها؛ إنّها طفلةٌ جديدةٌ أُعجبت صوفيا بشَعرها، كان اسم صديقتها الجديدة يورديس أيفيلين، لكنّها كانت تُدعى بيبسان.

أخبرت صوفيا جدّتها أنّ بيبسان تخشى أنْ تُسأل عن اسْمها الحقيقيّ، وأنّها في الحقيقة تخشى كلّ شيءٍ؛ ولهذا ينبغي أن تُعامَل برفقٍ، واتّفقتا على أنّهما في البداية على الأقلّ لنْ تُفزِعا بيبسان بشيءٍ لمْ ترَه من قبْل، وعندما جاءت بيبسان كانت ترتدي ثيابها بطريقةٍ خاطئة، وجاءت بحذاءٍ ذي نعلٍ جلديٍّ، وكانت حَسنة التربية، وصامتةً تماماً، وشَعرها يخطف الأنفاس لجماله.

- «أليس حُلواً؟». همست صوفيا: «إنّه مُجعّدٌ من طبيعته».

- «حُلوٌ جدّاً». قالت الجدّة، ونظرتا إلى بعضهما، وهزّتا رأسيهما ببطءٍ، وتنهّدت صوفيا، وأوضحت قائلةً: «أريد أنْ أحميها؛ ألا نقدر على أنْ نؤسّس جمعيّةً سرّيّةً لتحميها؟ الأمر المحزن الوحيد هو أنّ بيبسان لا يبدو عليها أنّها ثريّة».

اقترحت الجدّة أنْ تدعوا الطّفلة برنيسه، فقط داخل الجمعيّة، وبرنيسه

هي الملكة التي أصبحت مشهورةً بشَعرها، وكذلك لأنّها برجٌ من أبراج السّماء.



هذه الّلغة التصويريّة، وهذه الأحاديث الجدّيّة، كانت تُحيط بببيسان أينما مشت في الجزيرة، بوصْفها طفلةً صغيرةً جدّاً، وتخاف على نحوٍ غير عاديّ، ولا تستطيع أن تكون بمفردها؛ لهذا كانت صوفيا على عَجلةٍ من أمرها دائماً، فلمْ تجرؤ على أنْ تترك ضيفتها بمفردها لدقائق طويلة، وكانت الجدّة تستلقي في غرفة الضيوف التي في الجهة الخلفيّة من البيت عندما سمعتها تأتي، كانت تلهث على السلّم، يصحبها ضجيجها، فجلست على السرير وهمست: «إنّها تصيبني بالجنون، لا تريد أن تتعلّم التجذيف؛ فهي لا تجرؤ على صعود القارب، وهي ترى أنّ الماء بارد. ماذا أفعل مع برنيسه؟!».

عقدتا اجتماعاً قصيراً لمناقشة الأمر من دون أنْ تقرّرا شيئاً، وتركتا الأمر للمستقبل، وركضت صوفيا خارجةً من جديد.

بعد ذلك بُنيت غرفة الضّيوف، وكان لها طابعٌ شخصيٌّ: كانت الغرفة تضغط بإحكامٍ على الجهة الخلفيّة للبيت، ولها جدارٌ داخليٌّ مدهونٌ بالقطران؛ حيث تُعلَّق الشِباكُ، والمساميرُ الحلقيّةُ، والحبالُ، وأشياء أُخرى يمكن الحاجة إليها، وتكون معلّقةً هناك دائماً، والسّقف كان شديد الانحراف؛ حيث إنّه استمرارٌ للسّقف الأصليّ، وكانت الغرفة تنتصب على أعمدةٍ؛ لأنّ الجبل كان يهبط إلى الأسفل حيث كان هناك سابقاً مستنقعٌ بين البيت والمَحْطبة، وبسبب شجرة الصنوبر التي تقوم في الخارج، كانت غرفة الضّيوف بطول سريرٍ فقط، أو لنقُل: إنّها كانت عبارة عن ممرٍّ صغيرٍ ملوّنٍ بطباشير زرقاء، فيما كان الباب وصندوق المسامير في طرف، ونافذة كبيرة جدّاً في الطرف الآخر، وكانت النافذة كبيرةً؛ لأنّها في الأعلى، ومنحرفةٌ من طرفها الأيسر بسبب السّقف؛ أمّا السّرير، فهو أبيضُ مع بعض الزخارف بالأزرق والأصفر، وتحت غرفة الضّيوف كانت توجد أخشابٌ، وأوعيةٌ لقطران الفحم والبنزين، وأدواتٌ لإعداد الخشب،

وصناديقُ فارغةٌ، ومعاولُ، وأسياخٌ، وكذلك صناديقُ عتيقةٌ لنقل السّمك في القوارب، وأشياء عاديّة لم يجْرِ التخلُّص منها؛ لأنّها ما تزال مقبولة الشّكل، أو لنقُل: إنّ غرفة الضّيوف كانت لطيفةً، وتختلف كثيراً عمّا عداها كلّه، ولا داعي لذكر التفاصيل. عادت الجدّة تقرأ في كتابها، ولم تفكّر كثيراً ببرنيسه، وكانت رياح الصّيف الجنوبيّة الغربيّة تعصف بلا انقطاعٍ، وتصْفِر حول البيت، وحول الجزيرة، وكانت هي تسمع صوت نشرة الأحوال الجويّة من داخل البيت، فيما كان طرفٌ من أشعّة الشّمس يخترق صفحة النّافذة.

صفقت صوفيا الباب، وأقبلت وهي تقول: «إنّها تبكي، إنّها تخاف من النّمل، وتظنّ أنّ النّمل في كلّ مكان. إنّها ترفع ساقيها هكذا، وتضربهما في الأرض، وتبكي، ولا تجرؤ على أنْ تقف ساكنةً؛ ما الذي سنفعله معها؟».

وقرّرتا أن تأخذا برنيسه معهما في القارب؛ فليس فيه نمل، وبهذه الطريقة يحتالان عليها لتنسى خوفها الكبير من خلال خوفٍ أصغر، وعادت الجدّة تقرأ في كتابها.

كانت هناك في جهة الأقدام من السرير لوحةٌ لطيفةٌ لأحد النُّسّاك؛ إنّها عملٌ لونيٌّ على ورقٍ صقيلٍ مقصوصٍ من كتاب، فيها صحراء وسْط غسقٍ عميقٍ، سماء وأرض جافّة فقط، وفي الوسط يستلقي النّاسك في سريره ويقرأ، ولديه ما يشبه خيمةً مفتوحةً حوله، ومنضدة سريرٍ عليها مصباحٌ نفطيٌّ، وكانت مساحة خيمته، وسريره، ودائرة الضوء، ومنضدة السرير، صغيرةً بحجمه هو تقريباً، وفي داخل الغسق، في البعيد، بإمكانك أن ترى -على نحوٍ غير واضحٍ- أسداً جالساً. بدا لصوفيا أنّ الأسد مخيفٌ، لكنّ الجدّة كانت ترى أنّه على الأغلب يحمي النّاسك.

عندما تهبُّ الرّيحُ الجنوبيّةُ الغربيّةُ يمكن بسهولةٍ أن تحسّ بأنّ الأيّام

تتتابع من دون تغييرٍ، أو أحداثٍ من أيّ نوعٍ، فالنّهار واللّيل متشابهان وهادئان، والأب يعمل على طاولته، والشِّباكُ تُعَلَّق وتُرفَع، وكلّ شخصٍ يتنقّل حول الجزيرة لمشاغله الخاصّة البدهيّة بحيث لا تستحقّ الحديث عنها، لا من أجل كسْب الإعجاب، ولا من أجل كسْب التّعاطف. إنّه الصّيف الطّويل نفسه دائماً، وكلّ شيءٍ يكبر بالسّرعة التي تناسبه؛ لهذا كان قدوم برنيسه (ونحن ندعوها الآن باسْمها السرّيّ) إلى الجزيرة قد صنع تعقيداتٍ لم يكن أحدٌ يتوقّعها، فلم يفهم أحدٌ أنّ الإقامة في الجزيرة بأحوالها كلّها شيءٌ غير قابلٍ للتّجزئة، وطريقتهم الذاهلة في العيش، ومتابعة الصّيف في سَيْره البطيء، لم تحسب حساباً لقدوم ضيفٍ جديدٍ، ولم يفهموا أنّ الطّفلة برنيسه كانت خائفةً منهم أكثر من خوفها من البحر، والنّمل، وصوت الرّيح في الأشجار ليلاً.

في اليوم الثّالث دخلت صوفيا غرفة الضّيوف، وهي تقول: «الآن لم يعد هذا ممكناً، إنّها لا تُحتمَل! جعلتُها تغطس في الماء، لكنْ لم يتحسّن حالها».

– «هل غطسَتْ بالفعل؟». سألت الجدّة.

– نعم، دفعتها إلى الماء، فغطست.

– «هكذا!». قالت الجدّة: «وماذا الآن؟».

– «شعرها لا يحتمل ملوحة ماء البحر». شرحت صوفيا بحُزن: «إنّه يصير فظيعاً، ذلك الشعر الذي أحببتُه».

رَمت الجدّة عنها الغطاء، ونهضت، فتناولت عصاها، وهي تسأل: «أين هي؟».

«في حقل البطاطس». ردّت صوفيا.

ذهبت الجدّة بمفردها عبْر الجزيرة إلى حقل البطاطس: يقع الحقل

على مَبْعدةٍ من البحر، في مكانٍ لائذٍ من الرّياح بين الصخور، تأتيه الشّمس طوال اليوم، وهناك توضع بذور البطاطس على تربةٍ رمليّةٍ، وتوضع فوقها طبقةٌ من العشب البحريّ، وتُسقى بماءٍ مالحٍ، فتعطي بطاطس صغيرةً بيضويّةً نظيفةً بلمعةٍ خفيفة. كانت الطّفلة جالسةً خلْف أكبر الصخور، تحت أشجار الصّنوبر، وجلست الجدّة على مسافةٍ منها، وأخذت تحفر بمجرفتها الصغيرة، وكانت حبّات البطاطس ما تزال صغيرةً جدّاً، لكنّها مع ذلك التقطت منها عشر حبّات، فقالت لبرنيسه: «إليكِ كيفيّة القيام بذلك: تزرعين حبّةً واحدةً كبيرةً، فتصبح حبّاتٍ صغيرةً كثيرة، وإذا انتظرتِ قليلاً ستصبح الحبّات كلّها كبيرة».

نظرت برنيسه إليها نظرةً سريعةً من تحت شعرها الأشعث، وعادت تنظر إلى البعيد، لم يهمّها أمر البطاطس، لم يهمّها أحدٌ، أو شيءٌ على الإطلاق.

«لو أنّها كانت أكبر قليلاً». فكّرت الجدّة: «أو من الأفضل لو أنّها أكبر بكثير، لقلت لها: إنّني أفهم كم هذا كريه؛ فهنا يجد المرء نفسه، وبلا سابق تخطيطٍ، وسْط سورٍ متينٍ من أناسٍ عاشوا معاً دائماً، وظلّوا يتحرّكون حول بعضهم بحُكم العادة على أرضٍ يعرفونها ويفهمونها، وأقلّ تهديدٍ لما اعتادوا عليه سيجعلهم أكثر متانةً وأماناً. جزيرة يمكن أن تكون مريعةً لشخصٍ يأتيها من الخارج؛ فكلّ شيءٍ جاهزٌ، وكلّ شخصٍ له مكانه، بفرادةٍ، وهدوءٍ، واكتفاءٍ ذاتيٍّ، وكلّ شيءٍ داخل شواطئهم يعمل حسب الطّقوس الرّاسخة كالصّخر من التّكرار، وفي الوقت نفسه يهيمون خلال أيّامهم متقلّبين وعلى نحوٍ وقتيٍّ، كأنّ العالم انتهى عند الأفق». كانت الجدّة تفكّر في تلك الأشياء بتركيزٍ شديدٍ إلى درجة أنّها نسيت البطاطس وبرنيسه، وراحت تتأمّل بنظرها الشّاطئَ من الجهة التي لا تضربها الرّيح، والأمواجَ التي كانت تدور حول الجزيرة من الجانبين، وتلتقي وتستمرّ نحو اليابسة،

ومشهداً بعيداً أزرقَ لظهور الموج واختفائه من دون أن يخلّف وراءه سوى خطٍّ صغيرٍ من ماءٍ هادئٍ، وعبْر الخليج بدا قاربُ صيدٍ يُبحر، وقد عَلاهُ شراعٌ مثل شاربٍ أبيضَ ضخم.

- «آها!». قالت الجدّة: «هناك قاربٌ يسير». وتلفّتت باحثةً عن برنيسه، ولكنّ الطّفلة كانت قد أخفت نفسها كلّيّاً تحت شجرة الصنوبر. «آها!». قالت الجدّة ثانيةً: «ها قد جاء المُحتالون، الآن علينا الاختباء». وبشيءٍ من الجهْد دخلت تحت شجرة الصنوبر، وهمست: «هل ترين، إنّهم هناك، إنّهم آتون إلى هنا، والآن يجب أن ترافقيني إلى مكانٍ أكثر أماناً». وبدأت بالزّحف فوق الجبل، وبرنيسه تتبعها مسرعةً على أطرافها الأربعة، فأخذتا الطّريق حول مستنقع التوت البريّ، ووصلتا إلى منخفضٍ من الأرض نمَتْ فيه شجيرات الصّفصاف، وكانت أرض المنخفض رطبةً، لكنْ ليس بالإمكان فعل شيءٍ إزاء ذلك.

- «هكذا!». قالت الجدّة: «الآن، نحن في أمانٍ لبعض الوقت». ونظرت إلى وجه برنيسه، وأضافت قائلةً: «أعني إنّنا في أمان؛ لن يتمكّنوا أبداً من العثور علينا».

- «لماذا هُم أشرار؟». همست برنيسه.

- «لأنّهم يأتون لمضايقتنا». ردّت الجدّة: «نحن نعيش في هذه الجزيرة، ويجب على كلّ من يريد إزعاجنا أنْ يبقى بعيداً».

شاهدتا قاربَ الصّيد يتابع مسيره، وجاءت صوفيا، وأخذت تفتّش حول المكان، وظلّت تفتّش لنصف ساعةٍ، وأخيراً، عندما عثرت عليهما، ورأتهما منشغلتين بهدوءٍ في إزعاج الشّراغيف، تملّكها الغضب. «أين كنتما؟!». صاحت بهما: «لقد بحثت عنكما في كلّ مكان!»

- «لقد اختبأنا». أوضحت الجدّة.

- «اختبأنا». كرّرت برنيسه: «لنْ ندع أحداً يأتي إلى هنا». واقتربت كثيراً إلى الجدّة، وبلا توقّعٍ راحت تحدّق في صوفيا، لم تقُل صوفيا شيئاً، فقط استدارت وهربت منهما.

انكمشت الجزيرة، وضاقت. أينما ذهبَتْ صوفيا كانت تعلم بمكان الجدّة وبرنيسه، وأنّ عليها أنْ تبتعد عنهما، وما إنْ تختفيا عن نظرها حتّى تجد نفسها مضطّرّةً للعثور عليهما لكي تستطيع المضيّ في طريقها.

شيئاً فشيئاً أصاب الجدّة إرهاقٌ، فصعدت سلالمَ غرفة الضّيوف. «الآن سأقرأ قليلاً». قالت: «فلْتلعبي مع صوفيا لبعض الوقت».

- «لا». قالت برنيسه.

- إذنْ، العبي وحْدكِ.

- «لا». قالت برنيسه، وقد انتابها الخوف من جديد.

جاءت الجدّة بدفترٍ وقلم رصاصٍ، ووضعتهما على السّلّم. «بإمكانكِ أنْ ترسمي لوحة». قالت.

- «لا أعرف رسْم أيّ شيء». ردّت الطّفلة.

- «ارسمي شيئاً فظيعاً». قالت الجدّة، وقد انتابها التّعب: «ارسمي أفْظع ما يمكنكِ، واستمرّي بالرّسم أطول وقتٍ ممكن».

وأغلقت الباب بالمزلاج، واستلقت على السرير، وسحبت البطّانيّة فوق رأسها، وكانت الرّيح الجنوبيّة الغربيّة تصْفِر بهدوءٍ، وبعيداً عن الشّواطئ، وتحيط بمركز الجزيرة الذي لم يكن سوى غرفة الضّيوف والمَحْطَبة.

سحبت صوفيا صندوق نقل السّمك إلى النّافذة، وصعدت فوقه، وطرقت على النّافذة ثلاث مرّاتٍ طويلة، وثلاث مرّاتٍ قصيرة، وعندما خرجت الجدّة من تحت بطّانيّتها، وفتحت فتحةً صغيرةً، قالت صوفيا: إنّها

خرجت من الجمعيّة. «تلك البيبسان!». قالت: «إنّ «البيبسانات» لا يُثرن اهتمامي، ماذا تفعل هي؟».

- إنّها ترسم، إنّها ترسم أفظع ما تستطيع.

- «إنّها لا تُجيد الرّسم». همست صوفيا بتأثّرٍ: «أهذا دفتري الذي أعطيتِها إيّاه؟ ما الذي سترسمه؟».

أُغلِقت النّافذة مرّةً أُخرى، وعادت الجدّة لتستلقي على ظهرها، وعادت صوفيا ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّةٍ تحمل معها لوحةً فظيعةً تلصقها على النّافذة، موجّهةً الرّسم نحو داخل غرفة الضّيوف: كانت الصّورة الأولى تصوّر طفلةً بشَعرٍ قبيحٍ تقف صارخةً، بينما كان هناك نملٌ كبير الحجم يتسلّق عليها، وفي الصورة الثّانية، الطّفلة نفسها، وقد أُصيبت بحجرٍ في رأسها، والصّورة الثّالثة كانت لحطام سفينةٍ من دون تفاصيل أُخرى، فافترضت الجدّة أنّ هذه الأشياء كلّها انفعالات، وعندما فتحت كتابها، وعثرت أخيراً على الصّفحة التي كانت فيها، وشاهدت ورقةً تدخل من تحت الباب.

كان رسم برنيسه جيّداً، معمولاً بنوعٍ من الغضب المُعتنى به، ويصوّر كائناً وَجْهُه عبارة عن ثقبٍ أسْود، وكان هذا الكائن يتحرّك إلى الأمام مادّاً كتفيه، وذراعاه جناحان طويلان مقسّمان مثل أجنحة الخفافيش، تبدأ الذراعان في الأعلى عند الرقبة، وتنسحبان في الأرض من كلا الجانبين، كإسنادٍ، أو ربّما كمانعٍ من هذا الجسم غير المحدّد، ومعدوم العظام؛ كانت صورةً فظيعةً جدّاً، وممتلئةً بالتعابير، بحيث إنّ الجدّة أُعجبت بها، ففتحت الباب، وهتفت: «إنّه جيّد! إنّه حقيقةً رسمٌ جيّد!».

لم ترَ الطّفلة، فقد كانت تنظر إلى الرّسم فقط، ولم تكن نبْرتها ودّيّةً، ولا مشجّعةً، وظلّت برنيسه جالسةً على السّلّم من دون أنْ تلتفت، فتناولت

حجراً صغيراً، ورمت به عالياً في الهواء، ثمّ نهضت، ومشت بحركاتٍ بطيئةٍ ومدروسةٍ إلى الشاطئ، ووقفت صوفيا في المَحْطبة وانتظرت.

- «ماذا تفعل الآن؟». سألت الجدّة.

- «رمتْ أحجاراً في البُحيرة». قالت صوفيا: «إنّها تمشي على اللّسان الصّخري».

- «هذا جيّد». قالت الجدّة: «تعالي هنا وانظري ماذا فعلَتْ. ماذا تعتقدين؟».

- «آه حسناً». قالت صوفيا.

علّقت الجدّة الصّورة على الجدار بدبّوسَيْن، وقالت: «يا لها من فكرةٍ باهرة! لنتركها الآن بسلام».

- «هل يمكنها الرّسم؟». سألت صوفيا مُغتمّة.

- «كلا». أجابت الجدّة: «في الغالب لا يمكنها ذلك؛ إنّها من أولئك الذين يفعلون شيئاً جيّداً لمرّةٍ واحدةٍ، ثمّ لا يستطيعون تكراره أبداً».

المرج

سألت صوفيا: «كيف تبدو الجنّة؟». وأجابتها جدّتها بأنّها ربّما تبدو مثل ذلك المرْج الذي مَرّتا به في طريقهنّ إلى القرية وتوقّفتا للمشاهدة: كان الجوّ شديدَ الحرارة، والطّريقُ الريفيُّ أبيضَ ومشقّقاً، والنّباتاتُ عند حافّة الخندق أوراقها مُتربة. دخلتا المرعى، وجلستا على العشب الذي كان عالياً وغير مُترب؛ حيث نمتْ نباتات الجرس الأزرق، وورود رِجْل القطّ، والزّهور الزبَديّة الصّفراء.

- «هل يوجد نملٌ في الجنّة؟». سألت صوفيا.

- «كلّا». قالت الجدّة، ورقدت برفقٍ على ظهرها، وأمالت قبّعتها على أنفها، وحاولت أنْ تنام خِلسةً، وفي البعيد كانت تسير ماكينةٌ زراعيّةٌ ما، بدأبٍ وأمان. لو جرى إطفاء هذه الماكينة، وهو أمرٌ سهلٌ جدّاً، وأصغى المرءُ إلى الحشرات، لصارت أعدادها آلاف الملايين، وملأت العالم كلّه بموجاتٍ صاعدةٍ وهابطةٍ من النّشوة والصّيف. قطفت صوفيا زهوراً، واحتفظت بها في يدها إلى أنْ أصبحت ساخنةً وغير مريحة، وعندها ألقتها على جدّتها، وسألتها كيف يستطيع الله أن يتابع الذين يدعونه كلّهم في وقتٍ واحد.

- «إنّه حكيمٌ جدّاً، جدّاً». غمغمت الجدّة ناعسةً من تحت قبّعتها.

- «أجيبيني بحقّ». قالت صوفيا: «كيف يستطيع أنْ يفعل ذلك؟».

- لديه سكرتير...

- لكنْ كيف يستطيع أن يلبّي للدُّعاة ما يريدون حين لا يكون لديه وقتٌ للحديث مع السّكرتير قبل أن تسوء الأمور؟

تظاهرت الجدّة بالنّوم، لكنّها كانت تعلم دائماً أنّ تظاهرها لنْ يخدع أحداً، وفي النّهاية قالت: «إنّه يرتّب هذا الأمر بحيث لا يحدث أيّ شيءٍ خطر بين لحظة الدّعاء ولحظة معرفته بما قاله الشّخص في دعائه». وعندها سألتها حفيدتها: «وكيف يتمّ هذا في حالة شخصٍ يدعو ربّه في أثناء سقوطه عن الجبل، وهو يطير في الهواء؟».

- «هاها!». قالت الجدّة، وقد بدأت تصحو: «في هذه الحالة سيجعله يَعْلَق بغصنٍ ما».

- «هذا ذكاءٌ منك». اعترفت صوفيا: «والآن، لكِ أن تسألي، لكنْ يجب أن يكون موضوع السّؤال هو الجنّة».

- هل تعتقدين أنّ الملائكة جميعاً يلبسون الثياب لكي لا يعرف أحدٌ جنسهم؟

- يا له من سؤالٍ أحمق! أنتِ تعلمين بأنّ الملائكة يرتدون ثياباً، والآن، اِسمعي جيّداً ما سأقول: لو أراد أحدٌ التأكّد من جنس الكائن الآخر فما عليه سوى أنْ يطير تحت الكائن الآخر، وينظر فيما إذا كان يرتدي سروالاً.

- «آها!». قالت الجدّة: «جيّدٌ أنْ أعلم هذا. والآن دورك».

- هل يقدر الملائكة على أنْ يطيروا هابطين إلى الجحيم؟

- بالتّأكيد! فمن الممكن أن يكون هناك عددٌ كبيرٌ من أصدقائهم ومعارفهم.

- «لقد وقعتِ!». هتفت صوفيا: «البارحة قلتِ: إنّه لا يوجد شيءٌ اسمه جحيم».

انزعجت الجدّة، وجلست، ثمّ قالت: «واليوم أيضاً ما زلت أعتقد الشيء نفسه، لكنْ هذه مجرّد لعبة».

- هذه ليست لعبةً، على المرء أن يكون جادّاً عند الحديث عن الله! لا أصدّق أنّ الله خلق جحيماً.

- بلى، قد فعل.

- كلّا، لم يفعل.

- بلى، قد فعل، لقد خلق جحيماً هائلاً!

ونهضت الجدّة بسرعةٍ شديدةٍ؛ لأنّها كانت غاضبةً، فدار المرعى كلّه حولها، وأوشكت أنْ تفقد توازنها، فانتظرت قليلاً، ثمّ قالت: «صوفيا، هذا الأمر لا يستحقّ أن نتشاجر حوله على الإطلاق، بإمكانكِ أن تفهمي أنّ الحياة صعبةٌ بما يكفي حتّى من دون أن ينال المرء عقاباً على ماضيه، إنّما ينال مواساةً؛ هذه هي الفكرة كلّها».

- «بل هي ليست صعبة». هتفت صوفيا: «وماذا تفعلين للشيطان إذنْ؟ إنّه يسكن في الجحيم!».

فكّرت الجدّة لبعض الوقت بأنْ تقول: إنّه هو أيضاً غير موجود، لكنّها لم تُرِد أنْ تكون مزعجةً، وفي ذلك الوقت كانت تلك الماكينة الزراعيّة تصدر ضوضاء مزعجة، فرجعت الجدّة إلى الطريق الريفيّ، فداست مباشرةً على قطعةٍ كبيرةٍ من رَوث البقر، ولم تتبعها حفيدتها.

- «صوفيا». نادت الجدّة محذّرةً: «قلت إنّه يمكنك الحصول على حلوى «يافا» من المتْجر».

– «يافا». كرّرت صوفيا باحتقارٍ: «هل تظنّين أنّه يمكن التفكير بـِ»يافا» عند الحديث عن الربّ والشّيطان؟».

نظّفت الجدّة بعصاها ما استطاعت تنظيفه من الرَّوث عن حذائها، ثمّ قالت: «يا عزيزتي الطّفلة، بما في العالم كلّه من إرادةٍ طيّبةٍ، لا أستطيع في عمري هذا أن أؤمن بوجود الشّيطان. لكِ أنْ تؤمني بما تشائين، لكنْ عليكِ أن تتعلّمي التّسامح».

– «وما يكون هذا؟». سألت الطّفلة متجهّمة.

– التّسامح هو أنْ تحترمي الآراء كلّها.

– «وماذا يعني أنْ أحترم؟». صرخت صوفيا، وراحت ترفس الأرض بقدميها.

– «أنْ تدعي الآخرين يؤمنون بما يشاؤون!». هتفت جدّتها: «أسمح لكِ أن تؤمني بوجود الشّيطان، وتسمحين لي بأن لا أفعل».

– «أنت تشتمين». همست صوفيا.

– بالتّأكيد لم أفعل.

– بلى فعلتِ؛ قلتِ: شيطان(*).

لمْ تنظرا بعد ذلك إلى بعضهما، وجاءت ثلاث بقراتٍ في الطّريق الريفيّ مؤرجحةً ذيولها وقرونها، مرّت بهما ببطءٍ، يرافقها سِربٌ من الذّباب، وواصلت المشي صوب القرية بمؤخّراتٍ تهتزّ، وقد تجعّد جِلدها، ثمّ سارتا في طريقهما، ولم يعد يوجد بينهما سوى الصّمت.

في النّهاية، قالت جدّة صوفيا: «أستطيع أن أؤدّي أغنيةً لا تستطيعينها أنتِ». وانتظرت لحظةً، ثمّ راحت تغنّي على نحوٍ خاطئٍ جدّاً؛ إذْ كانت

(*) كلمة «شيطان» باللغة السويدية تستخدم للّعن. (المترجم).

حبالها الصّوتيّة تتقاطع: «شو - ليت - تاليو شو - ليت - تالي، لا ترمِ عليّ رَوث البقر، شو - ليت - تالي، شو - ليت - تالي، إذْ إنّني سوف أعيد رميها عليك. تغوَّطْ».

- «ماذا قلتِ؟». همست صوفيا؛ لأنّها لم تصدّق أذنيها، وعندئذٍ غنّت الجدّة مرّةً ثانيةً المقطع القبيح جدّاً ذاته.

صعدت صوفيا فوق حافّة الخندق، وراحت تسير باتّجاه القرية. «لم يحدث قطّ أن قال أبي كلمة «تغَوَّطْ». قالت من فوق كتفها: «أين تعلّمتِ هذا؟».

- «لن أقول». أجابت الجدّة.

ذهبتا إلى الحظيرة، ومرّتا من خلال الأعمدة مجتازتين حظائر الأبقار، وقبل أنْ تصلا إلى المتْجر تحت الأشجار استطاعت صوفيا أن تؤدّي الأغنية، وغنّتها مكرّرةً أخطاء جدّتها تماماً.

لعبة «البندقيّة»

في أحد أيّام السّبت وصل بريدٌ إلى صوفيا؛ كان بطاقةً بريديّةً من مدينة «البندقيّة»، فيها اسم صوفيا بكامله مسبوقاً بلقب آنسة، وكانت الصّورة التي في الجهة الأماميّة الّلامعة هي أجمل ما رأته الأسْرة في أيّ يومٍ من الأيّام؛ صورة لصفٍّ كاملٍ من القصور الورديّة والذهبيّة الخارجة مباشرةً من ماءٍ معتمٍ، وجنادلَ ضيّقةٍ تستنير بفوانيسها، وبدرٍ مضيءٍ في سماءٍ زرقاءَ غامقةٍ، وامرأةٍ وحيدةٍ جميلةٍ تقف على جسرٍ صغيرٍ واضعةً يدها فوق عينها، والصّورة مطبوعةٌ بذهبٍ حقيقيٍّ في بعض الأماكن، فعلّقت صوفيا الصّورة تحت جهاز قياس الضّغط الجوّيّ.

أرادت صوفيا أنْ تعرف لماذا تحيط الماء بالبيوت كلّها، فشرحت لها جدّتها كلّ شيءٍ عن مدينة البندقيّة التي تغرق في البحر شيئاً فشيئاً؛ فقد زارت المدينة بنفسها، وأنعشها التفكير في رحلتها إلى إيطاليا، فاسترسلت في الحديث، وحاولت التحدّث عن أماكنَ أُخرى شاهدتها، لكنّ صوفيا كانت تريد أن تسمع عن البندقيّة فقط، وعلى وجه الخصوص عن القنوات الداكنة التي كانت تفوح منها رائحة العفونة والتفسّخ، وتسحب المدينة كلّ سنةٍ إلى الأسفل؛ حيث الطّين، وإلى القاع الأسْود المائع الذي دُفنت فيه أطباقٌ ذهبيّة. إنّه مبهجٌ بشكلٍ ما أنْ ترمي الأطباق من النّافذة بعد الانتهاء

من تناول الطعام، وأنْ تسكن في منزلٍ يغرق طوال الوقت هابطاً نحو نهايته. «أُنظري يا أمّاه». تقول الفتاة الّلطيفة ابنة مدينة البندقيّة: «اليوم غرق المطبخ تحت الماء». «لا يهمّ يا طفلتي العزيزة». تجيبها الأمّ: «فما تزال الصّالة موجودة». وأخذوا المصعد نازلين ليستقلّوا جندولهم، وتجمّعوا في الشّوارع.



لم تكن توجد سيّارةٌ واحدةٌ في المدينة كلّها؛ فقد غرقت منذ زمنٍ بعيدٍ في الوحْل، فلا يُسمع سوى وقع الخطوات على الجسور، والناس يمشون ويمشون طوال الّليل، وأحياناً يُسمع قليلٌ من الموسيقا، وأحياناً يُسمع صوت طقطقةٍ عندما ينهار أحد القصور، ويغرق في الأعماق، وفي كلّ مكانٍ تفوح رائحة الطّين. ذهبت صوفيا إلى مستنقع الماء الذي كان صقيلاً، ويمتزج فيه الّلونان: الأسْود، والبنّيّ، تحت أشجار جار الماء، فحفرت قناةً بين الطحالب والعنب البريّ، وكان خاتمها من الذّهب تزيّنه ياقوتةٌ حمراء. «أمّاه، خاتمي في القناة!». «لا يهمّ يا طفلتي العزيزة، صالتنا ممتلئةٌ بالذهب والأحجار الكريمة».

توجّهت صوفيا إلى جدّتها، وقالت لها: «فلْتُناديني طفلتي العزيزة، وأدعوكِ أمّاه».

- «ولكنّني جدّتك». أجابت الجدّة.

- «أرجوكِ يا أمّي، هذه لعبة». شرحت صوفيا: «أمّاه، هل سنلعب أنّكِ جدّتي؟ أنا طفلتك العزيزة من مدينة البندقيّة، وقد صنعتُ قناة».

نهضت الجدّة وقالت: «أعرف لعبةً أفضل؛ نحن نساءٌ كبيرات السنّ من مدينة البندقيّة، ونبني البندقيّة الجديدة».

وبدأتا تبنيان في قاع المستنقع؛ وضعتا الأساس لساحة سان ماركو بكميّةٍ من السدّادات الخشبيّة، وغطّتاها بأحجارٍ مسطّحةٍ، وصنعتا قنواتٍ كثيرةً، وبَنتا جسوراً فوقها، وكان النّمل الأسْود يروح ويجيء فوق الجسور، وانزلقت الجنادل تحت الجسور في ضوء القمر، والتقطت صوفيا صخور مرمرٍ بيضاءَ من الشّاطئ. «اُنظري يا أمّاه». هتفت: «لقد عثرتُ على قصرٍ جديد!».

- «لكنْ يا طفلتي العزيزة، أنا «أُمٌّ» لأبيكِ فقط». قالت الجدّة مغتمّة.

- «هكذا إذن!». صرخت صوفيا: «ولماذا هو وحْده من يحقّ له أن يقول: أمّاه؟». ألقت القصر في القناة، ومضت في طريقها.

جلست الجدّة في الشّرفة لتصنع «قصر دوجي» من خشب شجر البلسا، وحين اكتمل القصر لوّنته بالأصباغ المائيّة والذّهب، ثمّ جاءت صوفيا لتشاهد.

- «هنا». قالت الجدّة: «يعيش أمٌّ، وأبٌ، وطفلتهما، في تلك النّافذة. رمت الطّفلة طبق العشاء الخزفيّ في الحال عبْر النّافذة، فانكسر في السّاحة؛ لأنّه كان من الخزف. أتساءل: يا ترى ماذا قالت أمّها؟».

- «أعرف ماذا قالت أمّها». أجابت صوفيا: «قالت الأمّ: يا طفلتي العزيزة، هل تظنّين أنّ لدى أمّك الكثير من الخزف؟».

- وماذا قالت الطّفلة؟

- قالت: أرجوكِ يا أمّي، أعدكِ بأنْ لا أكسر سوى أطباق الذّهب!

وضعتا القصر عند السّاحة، وبقي الأب، والأمّ، والطّفلة، يعيشون هناك في الداخل، وصنعت الجدّة مزيداً من القصور، وانتقلت أُسَرٌ كثيرةٌ للعيش في البندقيّة، وكانت تنادي على بعضها عبْر القنوات. «كم ارتفعت المياه عندكم؟». «آه، ليس إلى حدٍّ خطِر، تقول أمّي: إنّه ليس أكثر من ثلاثين سنتيمتراً». «ماذا تطبخ أمّك للعشاء اليوم؟». «تطبخ سَمكاً...».

وفي اللّيالي كان الجميع ينامون، فلا يعود يُسمع سوى صوت النّمل، وهو يمشي فوق الجسور.

ازداد اهتمام الجدّة أكثر فأكثر؛ فبنت فندقاً، ورصيفاً للمشاة، وبرج ناقوسٍ يعلوه أسدٌ صغيرٌ، وتذكّرت أسماء الشّوارع على الرّغم من أنّه قد مضى وقتٌ طويلٌ على سكنها في البندقيّة، وذات يومٍ جلست سحليّة

ماءٍ خضراء في «القناة الكبرى» التي تمرّ عبْر مدينة البندقيّة، فتوجّب على القوارب أن تأخذ استدارةً طويلة.

أمطرت في المساء نفسه، وتحوّلت الرّياح إلى الجنوب الشرقيّ. أذاعوا في المذياع أنّ الضّغط الجويّ سينخفض، والرّيح ستكون بقوّة 6 درجاتٍ على مقياس بوفورت، ولم يفكّر أحدٌ بهذا الأمر، لكنْ في اللّيل، عندما استيقظت الجدّة كعادتها، وسمعت صوت ضربات المطر على سقف البيت، تذكّرت المدينة الغارقة، وتملّكها القلق. كانت الرّيح تعصف بشدّةٍ، ولم يكن بين المستنقع والبحر سوى مرج الشّاطئ، فغفت الجدّة ثانيةً، ثمّ استيقظت وفكّرت بمدينة البندقيّة وصوفيا، وكلّما استيقظت كانت تسمع صوت المطر والأمواج، وحين أشرقت الشّمس نهضت وارتدت معطفاً مطريّاً فوق قميص النّوم، ووضعت على رأسها قبّعةً مطريّة.



لم يكن المطر غزيراً، إلّا أنّ الأرض كانت مغمورةً وداكنة. «ستنمو النباتات على نحوٍ جيّدٍ». فكّرت الجدّة شاردة الذّهن، وأمسكت العصا بثباتٍ، وهي تدفع بها في وجه الرّيح، وكان الفجر الرماديّ جميلاً بغيومه المطيرة الطّويلة المتوازية التي تتابعت إلى الأمام عبْر السّماء، فيما كان البحر أخضرَ داكناً، وفيه بعض الإوزّ الأبيض، وسرعان ما رأت أنّ مرج الشّاطئ بأكمله قد غمره الفيضان، ثمّ رأت صوفيا تُقبل راكضةً على أرض الجبل.

- «لقد غرقَتْ!». صاحت صوفيا: «لقد اختفت!». كانت غرفة الّلعب مفتوحةً، وبابها يصطفق.

- «اِذهبي ونامي». قالت الجدّة: «اِخلعي القميص؛ فهو مبلّلٌ، وأغلقي الباب ونامي. سأعثر على القصر، أعدكِ بأنّني سوف أعثر عليه».

بكت صوفيا فاتحةً فاها، ولم تستمع، وفي نهاية الأمر كان على الجدّة أنْ تأخذها إلى غرفة الّلعب لتتأكّد من أنّها قد رقدت في سريرها. «سأعثر على القصر». كرّرت القول: «كفاكِ إلحاحاً ونامي». أغلقت الباب وخرجت، وحين نزلت الجدّة إلى الشّاطئ رأت أنّ مستنقع الماء قد تحوّل إلى خليجٍ، والأمواج تصعد إلى أعلى نباتات الخَلَنْج، ثمّ تنزل عائدةً إلى البحر، بينما تقف الأشجار في البعيد وسْط الماء؛ أمّا مدينة البندقيّة، فقد غرقت في البحر.

تسمّرت الجدّة في مكانها لوقتٍ طويلٍ تتأمّل ما حولها، ثمّ استدارت عائدةً إلى البيت، فأضاءت المصباح، وأخرجت أدواتها، وقطعةً مناسبةً من خشب شجر البلسا، ووضعت النظّارات الطبيّة على عينيها.

أصبح «قصر دوجي» جاهزاً عند السّاعة السّابعة، وعندها تماماً طرقت صوفيا الباب.

- «اِنتظري قليلاً». قالت الجدّة: «المزلاج مُقفل».

- «هل وجدتِها؟». هتفت صوفيا: «هل هي موجودة؟».

- «نعم». أجابت الجدّة: «كلّ شيءٍ باقٍ على حاله».

بدا القصر جديداً تماماً، لم يتعرّض لفيضانٍ قطّ، وبسرعةٍ أخذت الجدّة قدحها، وسكبت ماءه على قصر دوجي، وأفرغت منفضتها، وحكّت بالرّماد القبابَ والواجهة، وكانت صوفيا طيلة الوقت تسحب الباب وتنادي بأنّها تريد الدخول. فتحت الجدّة الباب وقالت: «نحن سعداء الحظّ!».

تفحّصت صوفيا القصر بدقّةٍ شديدةٍ، فأجلسته على منضدة السّرير، ولم تقُلْ شيئاً.

- «إنّه كما يجب أن يكون، أليس كذلك؟». سألت الجدّة بقلق.

- «اُسكتي». همست صوفيا: «أريد أن أسمع إنْ كانت ما تزال باقية».

أصغتا طويلاً، ثمّ قالت صوفيا: «يمكنكِ أنْ تهدئي؛ قالت أمّي: إنّ الطّقس كان سيّئاً جدّاً، وهي -الآن- تنظّف المكان، وهي متعبةٌ بعض الشّيء».

«أجل، أفهم». قالت الجدّة.



الرّيح الساكنة

من النّادر جدّاً أن تكون الرّيح ساكنةً إلى درجة أنّ قارباً صغيراً بمحرّكٍ خارجيٍّ يجرؤ على الخروج إلى جزيرة كومليت، آخر جزيرةٍ صخريّةٍ في خليج فنلندا؛ فالوصول إلى هناك يستغرق عدّة ساعاتٍ، وعلى المرء أن يأخذ معه طعاماً يكفي لليوم كلّه. كومليت جزيرةٌ صخريّةٌ طويلةٌ، ولو نظر المرء إليها من إحدى الجهات فستبدو كأنّها جزيرتان، ظهران صقيلان في أحدهما علامةٌ بحريّةٌ، وفي الآخر فنارٌ، وقد يخدعك اسم الجزيرة إذا كنت تتصوّر أنّه مرتبطٌ بسمك الكوميل، فلا يوجد هنا أيّ سمكٍ من هذا النّوع، وعند الاقتراب من الجزيرة يمكن للمرء أن يرى مدى صقالة الصّخور، كأنّها جلدُ فقماتٍ، وقد امتدّ بين الصّخور لسانٌ طويلٌ وضيّقٌ من الحصى كرويّة الشّكل.

كان البحر أملسَ كالزّيت، وشاحباً إلى درجة أنّ زرقته تكاد لا تُرى. جلست الجدّة وسْط القارب تحت مظلّةٍ بنفسجيّةٍ، وكانت تكره اللّون البنفسجيّ، لكنْ لم يكن ثمّة مظلّة غيرها، مع أنّ اللّون جميلٌ ومشرقٌ مثل البحر، وجعلتهم المظلّة يبدون مصطافين سيّئين، إلا أنهم لم يكونوا كذلك. توجّهت الأُسْرة إلى أرض الشّاطئ الذي لم يكن فيه جزءٌ مستورٌ عن الرّيح كما في بقيّة الجُزر، إنّما كان كلّه سِتْراً من الرّيح، فحملت الأُسرة

أشياءها، ووضعت الزّبدة في الظلّ، وكان الجبل الصخريّ ساخناً تحت أقدامهم، فأنزل الأب المظلّة في أحد الشّقوق، في المكان الذي رغبت الجدّة في الاستلقاء فيه على فراشٍ مطّاطيٍّ، والاستمتاع بوقتها، ورأتهما، وهما يذهبان كلٌّ في وجهته، وكانت الجزيرة كبيرةً جدّاً بحيث إنّهما سرعان ما تحوّلا في عينيها إلى نقطتين صغيرتين تتحرّكان في الشّاطئ، عندها زحفت خارجةً من تحت المظلّة، وتناولت عصاها، وسارت في وجهتها الخاصّة، لكنْ قبل أنْ تذهب وضعت السترات وأردية السّباحة على الفراش؛ ليبدو كما لو أنّها نائمةٌ فيه.

هبطت الجدّة إلى الشّاطئ في بقعةٍ تلفت النّظر؛ حيث التلالُ الصخريّة الجميلة المُطلّة على البحر، يقطعها عن بعضها منخفضٌ من الأرض، وعلى الرغم من انتصاف النّهار إلّا أنّ المنخفَض كان لديه ظلّه الخاصّ، وكان يواصل الانحدار إلى البحر، ويغيب بعيداً مثل شقٍّ مُعتمٍ، فجلست وزحفت إلى الأسفل زحفاتٍ صغيرةً متتابعةً إلى أنْ وصلت أخيراً إلى نهاية المنخفَض، وأحسّت بالهدوء والسّلام، فأشعلت لفافة تبغها، وتمعّنت في ذلك الارتفاع غير الملحوظ، وبعد قليلٍ برز القارب خلْف اللّسان الصخريّ، فقد استدار الأبُ حول الشِّعَاب المرجانيّة لكي يُلقي الشِّباك.

- «ها أنتِ ذي!». قالت صوفيا: «لقد سبحت».

- «هل كان الماء بارداً؟». سألت الجدّة. عندما نظرت إلى الطّفلة من الأسفل حيث تجلس، بدت الطفلة لها مثل ظلٍّ رفيعٍ يواجه أشعّة الشّمس، أو مثل عصاً صغيرة.

- «نعم، كان الجائف بارداً كالثلج». أجابت صوفيا، وهبطت قافزةً إلى المنخفض، وكان المنخفض بأكمله ممتلئاً بالحصى الكرويّة، حصى كبيرة كالرؤوس، وأُخرى صغيرة، وأُخرى أصغر، وأُخرى حتّى بحجم

البِلي. وجدتا بقعةً كان الجبل فيها قد تعرّض لانفجاراتٍ بالقنابل اليدويّة الفنلنديّة شديدة الصِّغر، التي كان يُعثر عليها أحياناً، وقد حاولتا تخليص إحداها بوساطة مطواة، ولم تنجح العمليّة، ولنْ تنجح أبداً. أخيراً، تناولتا خبزاً مجفّفاً، ونظرتا إلى القارب، وكانت الشِّباك كلّها قد أُخرجت منه، وأُعيد ليختفي وراء اللّسان الصخريّ.

– «أتدرين؟ أحياناً أحسّ بالملل الشّديد عندما يكون كلّ شيءٍ على ما يرام». قالت صوفيا.

– «هكذا!». قالت الجدّة، وتناولت لفافة تبغٍ جديدةً، كانت هي اللفافة الثانية قبل السّاعة الثانية عشرة، وقد حاولت دائماً أن تدخّن سرّاً عندما تتذكّر ذلك.

– «لا شيء يحدث». شرحت حفيدتها: «أردتُ تسلّق العلامة البحريّة، ومنعني أبي من ذلك».

– «مؤسف!». قالت الجدّة.

–»لا». قالت صوفيا: «ليس مؤسفاً؛ إنّها حماقةٌ جائفة».

– من أين جئتِ بكلمة «جائف» هذه؟ أنتِ تقولين: «جائف» طيلة الوقت.

– لا أدري، لكنّها مريحة.

– «البنفسجيّ لونٌ جائف». قالت الجدّة: «ذات مرّةٍ وجدتُ جيفةً حقيقيّةً؛ كانت جيفة خنزيرٍ، فقمنا بغلْي أطرافه لمدّة أسبوعٍ، وكانت رائحتها كريهة. أراد أبوكِ الهيكل العظميّ؛ لكي يأخذه إلى المدرسة؛ إنّه عِلم الحيوان كما تعلمين».

– «كلّا». قالت صوفيا: «ماذا تعنين؟ أيّة مدرسة؟».

– عندما كان والدكِ صغيراً.

- صغيرٌ إلى أي سنّ؟ عن أيّ خنزيرٍ تتكلّمين؟ ماذا قلتِ إنّه كان يُدعى؟

- «آه، لا شيء». قالت الجدّة: «ذات مرّةٍ عندما كان والدكِ في مثل سنّك الآن».

- «إنّه كبير». قالت الطفلة، وأخذت تزيل الرّمل الذي بين أصابع قدميها، فذهبت كلٌّ منهما في صمتها، وبعد قليلٍ أشارت الجدّة: «يظنّني نائمةً تحت هذه المظلّة».

- «لكنّكِ لستِ نائمة». قالت صوفيا: «أنتِ هنا، وتدخّنين سرّاً».

انتقتا أحجاراً لم تصبح كرويّةً تماماً بعْد، ورمتا بها في البحر؛ لكي تصبح كرويّةً بفعل تيّارات الماء. ذهبت الشّمس، ودار القارب حول الّلسان الصخريّ، والتقط الشّباك، ثمّ أفلتها ثانيةً.

- «هذا السّمك الجائف قليل». قالت الجدّة.

- «اِسمعي». قالت صوفيا: «لست قادرةً على البقاء هنا أكثر؛ لأنّني سبحتُ مرّتين فقط هذا اليوم؛ هذا لنْ يحزنكِ أليس كذلك؟».

- «أنا أيضاً أريد السّباحة». أوضحت الجدّة. فكّرت صوفيا قليلاً، ثمّ قالت: «يمكنكِ السّباحة، لكنْ فقط حين أقرّر أنا».

ساعدتا بعضهما في مغادرة المنخفض، وسارتا في دائرةٍ حول التلّة الصخريّة حتّى لا يراهما أحد، ووراء العلامة البحريّة كان هناك حوضٌ كبيرٌ وعميق.

- «هل هذا جيّد؟». سألت صوفيا.

- «إنّه جيّد». قالت الجدّة، وهي تُنزل رجليها في الحوض، كان الماء دافئاً ولطيفاً، وقفز إلى السطح غبارٌ بنّيٌّ خفيفٌ، وكميّةٌ من الشّراغف دارت وهدأت ثانيةً، فردت أصابعها إلى الخارج، ودفعت رجليها إلى الأسفل

أكثر، وفي المنطقة التي كان فيها الحوض يضيق نمتْ طاقةٌ كبيرةٌ من نباتاتٍ جميلة. كان الأبُ قد أشعل ناراً بعيداً من هنا، وصعد الدّخان باستقامة.

- «أظنّ». قالت الجدّة: «أظنّ أنّه في السنين كلّها التي أبحرت فيها بين هذه الجُزر، لم يكن الطّقس، ولو مرّةً واحدةً؛ بهذا الهدوء؛ كان عاصفاً دوماً، وهو لم يُبحر قطّ في جوٍّ عاصف. كان لدينا شراعٌ من النّوع المربّع، فهو يقود القارب، وأنا أتابع النّقاط في الظّلام، وبالكاد أستطيع المتابعة. «الصاري إلى الشّمال». كنت أقول: «الصّاري إلى الغرب». وكان يسير سريعاً، وذات مرّةٍ عندما انفكّت الدفّة...».

- «قمتِ بإصلاحها بوساطة دبّوس الشَّعر». قالت صوفيا.

حرّكت الجدّة ساقيها في الحوض، ولم تقُلْ شيئاً.

- «أو ربّما كان دبّوساً مشبكاً». واصلت صوفيا: «بعض الأيّام لا أتذكّرها جيّداً؛ من كان قائد المركب؟».

- « بالطبع جدّكِ». قالت الجدّة: «أعني: الرجُل الذي كنت متزوّجةً به».

- «هل أنتِ متزوّجة؟!». صاحت صوفيا بدهشةٍ هائلة.

- «غباء جائف». غمغمت الجدّة، وقالت بصوتٍ عالٍ: «موضوع الأجيال هذا يمكنكِ أنْ تسألي عنه أباكِ، أُطلبي إليه أن يشرح لكِ الموضوع بالرّسم على ورقةٍ، هذا إنْ كنتِ ترغبين».

- «لا أظنّ ذلك». قالت صوفيا بلُطف: «لأنّني الآن منشغلةٌ بعض الشّيء».

كانت العلامةُ البحريّة عاليةً جدّاً، ومصبوغةً باللّون الأبيض، ويتوسّطها مثلّثٌ أحمر، والألواحُ متباعدةً جدّاً؛ بحيث كانت ساقَا صوفيا بالكاد تصِلان، وبعد كلّ خطوةٍ تأخذ ركبتاها بالارتعاش، ليس كثيراً، إنّما فقط

لكي تنتظر حتّى ينتهي الارتعاش، ثمّ جاءت الخطوة التالية؛ كانت صوفيا على وشك الوصول إلى أعلى القمّة عندما رأتها جدّتها، فأدركت الجدّة على الفور أنّها لا يمكنها الصُّراخ.

عليها الانتظار حتّى تنزل الطّفلة، ولم يكن الأمر بتلك الخطورة؛ ففي داخل كلّ طفلٍ صغيرٍ قردٌ يحتلّ حيزاً كبيراً، والأطفال متسلّقون جيّدون، ولا يسقطون طالما لنْ يفزعهم أحد.

كانت صوفيا تتسلّق ببطءٍ شديدٍ مع وقفاتٍ طويلةٍ بين خطوةٍ وأُخرى، ففهمت الجدّة أنّها خائفةٌ، فنهضت أسرع ممّا يجب، فتدحرجت العصا ساقطةً في الحوض، وصارت التلّة الصخريّة كلّها مكاناً غير مأمونٍ، وعدائيّاً، ويتقوّس أمام ناظريها، فصعدت صوفيا خطوةً أُخرى.

- «أنتِ تُحسنين ذلك». هتفت الجدّة: «لم يبقَ أمامكِ سوى القليل للوصول إلى القمّة!».

استمرّت صوفيا، ووضعت يديها على آخر لوحٍ، ولم تتحرّك.

- «والآن، عليكِ النّزول ثانيةً». قالت الجدّة.

لكنّ الطّفلة لم تتحرّك، وكانت الشّمس ساخنةً جدّاً إلى درجة أنّ العلامة البحريّة كانت تلمع، والخطوط الخارجيّة كلّها تحوّلت إلى أمواج.

- «صوفيا». قالت الجدّة: «لقد سقطت عصاي في الحوض، ولا أستطيع الوقوف على قدميَّ». وانتظرت ونادت مرّةً ثانيةً: «إنّه أمرٌ سيّءٌ كالجائفة، هل تسمعين؟! إنّ توازني سيّءٌ كالجائفة هذا اليوم، ويجب أنْ أستعيد هذه العصا!».

بدأت صوفيا بالنّزول، وجرى الأمر بثباتٍ، بخطوةٍ واحدةٍ في كلّ مرّة. «يا للطّفلة اللّعينة!». فكّرت الجدّة: «أطفالٌ فظيعون! لكنْ هكذا هو

الحال عندما يُمنعون من فعل الأشياء الممتعة كلّها؛ تلك الأشياء التي تناسب سنّهم».

عادت صوفيا إلى أرض الجبل، وخَطت إلى داخل الحوض، والتقطت العصا، وأعطتها لجدّتها من دون أن تنظر إليها.

- «أنتِ ماهرةٌ جدّاً في التسلّق». قالت الجدّة مؤكّدةً: «وشجاعةٌ أيضاً؛ فقد رأيت أنّكِ كنتِ خائفةً، ومع ذلك استمرّيتِ. أأُخبره عن هذا أم أنسى الأمر؟».

رفعت صوفيا أحد كتفيها، ونظرت إلى جدّتها. «ربّما يكفي أنْ تعلمي أنتِ بالأمر». قالت: «لكنْ يمكنك البوحُ بهذا، وأنت على فراش الموت؛ لكي لا يذهب هباءً».

- «إنّها فكرةٌ جيّدةٌ مثل جائفة». أجابت الجدّة، وغادرت الجبل، وجلست إلى جانب الفراش المطّاطيّ، خارج المظلّة البنفسجيّة مباشرةً.

القطّ

كان القطُّ صغيراً جدّاً عند قدومه، ولم يكن يقوى سوى على شُرب الحليب بالرّضّاعة، ولِحُسن الحظّ أنّ رضّاعة صوفيا كانت ماتزال موجودةً في العلّيّة. في البداية، كان القطُّ ينام في غطاء غلّاية القهوة؛ ليحصل على الدّفء، لكنْ حين أصبح قادراً على استخدام أطرافه أصبح في إمكانه النّوم في غرفة اللّعب في سرير صوفيا، فكانت له وسادته الخاصّة إلى جانب وسادة صوفيا.

كان قطّاً رماديّاً من فصيلة صيّاد السّمك، وقد كبر بسرعةٍ، وذات يومٍ ترك القطُّ غرفة اللّعب، وانتقل إلى داخل البيت؛ حيث بات يقضي لياليه تحت السّرير في صندوق الأواني المتّسخة، فقد كانت لديه ابتكاراته الخاصّة، فحملت صوفيا القطّ عائدةً به إلى غرفة اللّعب، وفعلت ما في وسعها كلّه لكي تبقيه داخل الغرفة، لكنْ كلّما دأبت على ذلك عاد القطّ إلى حوض الأواني ثانيةً، وكلّما امتلأ الحوضُ عن آخره صرخَ القطّ، وعندئذٍ يتوجّب أنْ يغسل أحدهم الأواني، وكان يُدعى «مابيتيت»، وصاروا ينادونه «مابه».

- «الحُبُّ أمره عجيب!». قالت صوفيا: «كلّما ازداد حُبُّ المرء لشخصٍ ما قلَّ حُبُّ هذا الشّخص له».

- «هذا صحيحٌ إلى حدٍّ بعيد». أيّدت الجدّة: «وماذا عسى المرء أن يفعل إذنْ؟».

- «يستمرّ المرء في الحُبّ». أجابت صوفيا مهدّدةً: «يُحبّ بقوّةٍ أكثر فأكثر».

تنهّدت جدّتها، ولم تقُلْ شيئاً.

حُمل القطُّ إلى الأماكن اللّطيفة جميعها، التي يمكن لقطٍّ أنْ يسْعد بها، ويتفرّج على ما حولها، ويمشي في طريقه، وكان يحصل دوماً على العناق، ويحتملونه بلُطفٍ، ويزحف بنفسه إلى حوض المغسلة، وكان محلّ ثقةٍ، ويحوّل نظرته الصّفراء بعيداً، ولا يبدو أنّ هناك شيئاً في العالم يمكن أنْ يُثير اهتمامه ما عدا النّوم والأكل.

- «أتدرين». قالت صوفيا: «أحياناً يُخيّل إليّ أنّني أكره «مابه»؛ لم تعُد بي طاقة لأُحبّه، وأفكّر بذلك طيلة الوقت».

ظلّت صوفيا تلاحق القطّ أسبوعاً بعد آخر، وكانت تتكلّم معه بهدوءٍ، وتمنحه التعاطف والتفهُّم، ولم يحدث سوى في مرّةٍ واحدةٍ أنْ نفد صبرها، فصرخت، وسحبت القطّ من ذيله، وعندها صرخ «مابه»، واختفى تحت البيت، وبعد ذلك تحسّنت شهيّته، ونام وقتاً أطول من المُعتاد، ملتفّاً بليونته العصيّة على الإمساك، ومخالبه فوق أنفه.

كفّت صوفيا عن اللّعب، وبدأت ترى كوابيس في نومها، ولم تقدر على أن تفكّر بشيءٍ آخر غير القطّ الذي لم يكن يريد أن يكون مخلصاً، وفي أثناء ذلك كان «مابه» يكبر ليصبح قطّاً صغيراً نحيفاً ومتوحّشاً، وذات ليلةٍ جميلةٍ من شهر حزيران/ يونيو لم يعُد القطُّ إلى حوضه.

وفي الصباح دخل غرفة اللّعب، وراح يتمطّى، وبدأ برِجْلَيه الأماميّتين رافعاً مؤخّرته، ثمّ مطّ رِجْلَيه الخلفيّتين، وأغمض عينيه، وأخذ يشحذ

مخالبه بالكرسيّ الهزّاز، ثمّ قفز إلى السّرير لينام، وكان القطّ بكامله يبدو عليه هدوء المنتصر.

- «لقد بدأ يطارد الفرائس». فكّرت الجدّة.

كانت محقّةً؛ ففي صباح اليوم التالي، دخل القطّ، ووضع على العتبة طائراً صغيراً أصفرَ رماديّاً، وكانت رقبة الطائر مقطوعةً بكلّ سلاسةٍ، واستقرّت بضعُ قطراتٍ من الدّم على نحوٍ جميلٍ على الرّيش اللّامع، فشحبت صوفيا، وتسمرّت عيناها على الطّير القتيل، ومرّت بالقاتل «مابه»، وبخطواتٍ جانبيّةٍ صغيرةٍ استدارت وركضت خارجة.

فيما بعد تحدّثت الجدّة عن خصيصةٍ في الحيوانات البريّة، كالقطط مثلاً، وهي أنّها غير قادرةٍ على أنْ تفهم الفرق بين الفأر والطّير.

- «فهي إذنْ حيواناتٌ غبيّة». قالت صوفيا بسرعة: «فالفأر شكله مقرفٌ، والطّير شكله لطيفٌ، وأنا لن أكلّم «مابه» لثلاثة أيّام». ولم تكلّم القطّ بعد ذلك.

كان القطُّ يخرج كلّ ليلةٍ إلى الغابة، وفي الصباح يهاجم فريسته، ويحملها إلى الغرفة، متوقّعاً الحصول على الإعجاب، وفي كلّ مرّةٍ كان يُلقى الطّير في البحر، وبعد قليلٍ تقف صوفيا خارج النافذة وتصرخ: «هل يمكن الدخول الآن؟ هل كُنست الجثّة بعيداً؟» صارت تعاقب «مابه» فيما هي تزداد ألماً، وكانت تصرخ بالقطّ: «هل نظّفت نفسك من بقع الدّم؟!» أو: كم كان عدد القتلى اليوم؟». ولم تعد جلسة قهوة الصباح سعيدةً كما كانت.

كان من المريح جدّاً أن يتعلّم «مابه» -أخيراً- إخفاء جرائمه؛ فأنْ ترى بِركة الدّم شيء، وأنْ تعلم بها فقط شيءٌ آخر. وأخيراً، سئم «مابه» هذا الصّراخ والشّجار كلّه، وربّما ظنّ أنّ الأسْرة كانت تأكل طيوره، وذات

صباحٍ حين كانت الجدّة تأخذ لفافة تبغها الأولى في الشرفة، أوقعت مبْسم لفافة التبغ، وتدحرجت هذه في أحد شقوق الأرضيّة، وعندما رفعت الجدّة لوحاً خشبيّاً من الأرضيّة شاهدت ما الذي فعله «مابه»: كان سطراً من الطيور الصغيرة المأكولة أكلاً دقيقاً، فعلمت الجدّة بالطبع أنّ القطّ قد واصل الصّيد، ولم يتوقّف، لكنْ بعد ذلك عندما لمس القطّ ساقها، وهو يمرّ بها، انسحبت بعيداً عنه، وهي تهمس: «أيّها الشّيطان الخبيث!». وعند الدرج بقي صحن الطّعام خاصّته من دون أن يُمسّ، جاذباً الذّباب حوله.



- «اِسمعي». قالت صوفيا: «أتمنّى لو أنّ «مابه» لم يولد قطّ، أو لو أنّني أنا لم أولد قطّ، كان الأمر سيغدو أفضل بكثير».

- «إذنْ، أنتما ما تزالان لا تتكلّمان مع بعضكما؟». سألت الجدة.

- «ولا حتّى كلمةً واحدة». أجابت صوفيا: «لست أدري ما عساي أنْ أفعل، وحتّى إنْ غفرت له فما الممتع مادام هو غِير مهتمٍّ بالأمر؟». ولم تجد الجدّة ما تقوله.

صار «مابه» أشبه بقطٍّ بريٍّ لا يدخل غرفة الّلعب إلّا نادراً، كان له لون الجزيرة نفسه، وهو أصفر رماديٌّ فاتحٌ مع ظلالٍ خفيفةٍ مخطّطةٍ مثل جبالٍ، أو بقعٍ شمسيّةٍ في قاعٍ رمليّ، وعندما ينسلّ إلى مرج الشّاطئ كانت حركاته تشبه لمسات الرّيح بين العشب، ويراقب من داخل الأجَمة لعدّة ساعاتٍ، مثل صورةٍ شبحيّةٍ عديمة الحركة: له أذنان مدبّبتان تواجهان الشّمس الغاربة، وفجأةً تختفيان... ثمّ يُسمع صوت أنينٍ ضعيفٍ لمرّةٍ واحدةٍ فقط، ثمّ يتسلّل إلى داخل الأشجار، مبلّلاً بالمطر، ونحيلاً مثل خطٍّ، وينظّف نفسه باستمتاعٍ عندما تكون الشّمس قد بدأت بالبزوغ؛ كان قطّاً شديد السّعادة، لكنّ الآخرين لم يكونوا يشاركونه إيّاها، وفي الأيّام الدّافئة كان يجري على تلك التلّة الصّخريّة الصّقيلة، وأحياناً يأكل العشب ويتقيّأ شعره بهدوءٍ على طريقة القطط؛ أمّا ماذا كان يفعل فيما عدا هذه الأشياء، فلا أحد يعلم.

في أحد أيّام السّبت جاءت أُسْرة أوفركودس لتناول القهوة، فنزلت صوفيا إلى الشّاطئ، وتفرّجت على قاربهم: كان كبيراً، وممتلئاً بأكياس التسوّق، وصفائح الوقود، والسِّلال، وفي إحدى هذه السِّلال كان هناك قطٌّ يموء، فرفعت صوفيا الغطاء، فراح القطّ يلعق يَدها، وكان كبيراً، وأبيَض، وعريض الوجه، ولم يكفّ عن الخرخرة عندما رفعته وحملته إلى أرض الشّاطئ.

- «أرى أنّكِ قد عثرتِ على القطّ». قالت أنّا أوفركودس: «إنّه قطٌّ لطيفٌ، لكنّه لا يصيد الفئران؛ ولهذا فكّرنا أن نعطيه لبعض الأصدقاء».

جلست صوفيا على السّرير، وهذا القطّ الثّقيل في حضنها، يخرخر طيلة الوقت، وكان ناعماً، ودافئاً، وطائعاً.

تمّ الأمر بمنتهى السّهولة، مع زجاجة شرابٍ كتأكيدٍ لعمليّة المقايضة،

واحتُجِزَ «مابه»، الذي لم يفهم ما الذي يجري قبل أن يتحرّك مركب أُسْرة أوفركودس بهِ متّجهاً إلى القرية.

كان اسم القطّ اسْفانته، يأكل السّمك، ويحبّ أن يُداعَب، وانتقل إلى غرفة الّلعب، وكان ينام كلّ ليلةٍ بين ذراعيّ صوفيا، ويدخل عليهم في أثناء تناول قهوة الصّباح، ثمّ يعود للنوم في السّرير قُرب الموقد، وإذا كانت الشّمس مشرقةً كان يتدحرج على أرض الجبل الدافئة. «ليس هناك!». تصيح صوفيا: «ذلك مكان «مابه!». وتحمل القطّ بعيداً قليلاً، فيلعق أنفها، ويتدحرج طائعاً في المكان الجديد.

صار الصّيف أجمل؛ سلسلة طويلة من النّهارات الصيفيّة الزرقاء الهادئة، وكان اسفانته ينام كلّ ليلةٍ، وأنفه على خدّ صوفيا.

- «إنّ أمري عجيب!». قالت صوفيا: «فأنا أرى أنّ الطّقس الجميل مُملّ».

- «هل ترين ذلك حقّاً؟». قالت جدّتها: «إذنْ، فأنتِ مثل جدّك تماماً؛ هو أيضاً يحبُّ العواصف». لكنْ قبل أن تكمل كلامها عن الجدّ كانت صوفيا قد غادرت المكان.

وشيئاً فشيئاً بدأت العاصفة في وقتٍ ما في أثناء الّليل، وفي الصّباح كانت الرّيح الجنوبيّة الغربيّة المألوفة تنثر الرّغوة فوق الجبل كلّه.

- «استيقظ». همست صوفيا: «استيقظ يا عزيزي، إنّها العاصفة».

خرخر القطّ، ومطّ في الاتّجاهات كلّها ساقيه المتدفّئتين في السّرير، وكان الشّرشف ممتلئاً بشَعر قِطط.

- «اِنهض!». صاحت صوفيا: «إنّها العاصفة!». ما فعله القطّ كلّه هو أنّه استدار ببطنه العريض، عندهاغضبت بشدّة فجأةً! فرفست الباب، وألقت بالقطّ إلى الرّيح، ونظرت إليه، وهو يحني أذنيه استسلاماً، وصرخت

به: «اِذهب واصطَدْ! افعل شيئاً! كُن مثل القطط!». ثمّ شرعت بالبكاء، وركضت إلى غرفة الضّيوف، وراحت تطرق الباب.

- «ماذا هناك الآن؟». قالت الجدّة.

- «أريد أن يعود «مابه»!». صاحت صوفيا.

- «ولكنّكِ تعرفين كيف سيكون الحال». قالت الجدّة.

- «سيكون أمراً كريهاً». قالت صوفيا بجديّةٍ: «ولكنْ من أُحبّه هو «مابه»».

وهكذا تبادلوا القطَّيْن مرّةً أُخرى.



الكهف

في أقصى الخليج، وعلى الجزيرة الكبرى، نمى العشب في الرّمل قصيراً وزاهيَ الخُضرة، وجذور هذا العشب هي الأقوى من نوعها؛ فهي تلفّ نفسها معاً في عُقَدٍ، وتتحوّل إلى كتلةٍ لدنةٍ تحتمل أيّة أمواجٍ، وكانت أمواج البحر الكبيرة تجري فوق القاع الرمليّ باستقامةٍ، ولكنّها في داخل الخليج تلاقي هذا العشب، فتتسطّح. صحيحٌ أنّهم تمكّنوا من أن يحفروا الرّمال، ولكنّ الشّيء الوحيد الذي حصل لتلّة العشب هو أنّها غرقت واستقرّت في مرتفعاتٍ ومنخفضاتٍ جديدة. عندما يمشي المرء طويلاً في الماء سيحسّ بالعشب تحت أقدامه، وفي الأعلى نمى العشب على اليابسة بعيداً عن العشب البحريّ، وأبعد من ذلك كانت تقع غابةٌ من شجيرات الإكليليّة، والقُرّاص، والبَيْقيّة، والنباتات الأُخرى جميعها التي تحبّ الملح، وكانت الغابة كثيفةً جدّاً وعاليةً، وكانت تتغذّى على نحوٍ رئيسٍ على الأعشاب البحريّة، والسّمك الميت، ونمتْ إلى أعلى ما تستطيع، وعندما لم تستطع أن تبلغ أعلى من ذلك كانت تلتقي بأشجار صفصاف الماعز، والسّمن، وجار الماء، التي كانت تنحني إلى أقصى عمقٍ ممكنٍ، وعندما يمرّ أحدٌ بينها مفتوح الذّراعين فإنّه يحسّ كأنّه يعوم. عندما تُزهر أشجار الكرز العنقوديّ، خاصّةً أشجار السّمن، فإنّها تعطي رائحةً تشبه رائحة بول القطط.

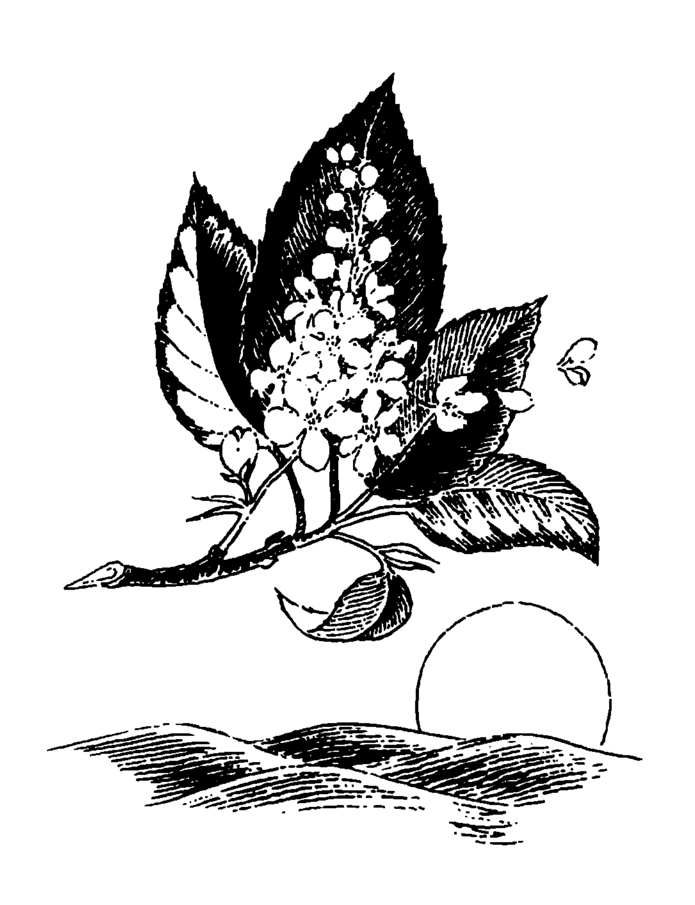
صنعت صوفيا طريقاً خلال الغابة البدائيّة بمساعدة مقصٍّ كبير، وكانت تعمل بصبرٍ عندما تكون لديها الرّغبة بذلك، ولم يعلم أيّ أحدٍ بأمر الطّريق. في البداية، كان الطّريق يلتفّ حول شجيرة الورد التي كانت كبيرةً ومشهورةً، وتُدعى روسا روغوسا، وعندما تُثمر هذه الشُّجيرة زهوراً بسيطةً جدّاً فإنّها تصمد أمام العواصف، لكنّها تسقط وقتما تشاء، وكان يأتي أناسٌ من القرية للمشاهدة. كانت الجذور عاليةً، وقد طهّرتها الأمواج، وفي الأغصان أعشابٌ بحريّةٌ، وكلّ سبع سنوات كانت شجرة روسا روغوسا تموت بفعل الملح والمشقّة، لكنّ أبناءها يعيشون حتّى في الرّمال المحيطة بهم، وتعود سيرة الحياة كالسّابق، وبذلك تكون قد نقلت مكانها قليلاً ليس إلّا. كان الطّريق يستمرّ عبْر حزامٍ من شجر القُرّاص الخبيث، ثمّ يأتي شجر الإكليليّة وشجيرات الكشمش والليزيماكيا تحت شجر جار الماء، وعند عتبة الغابة تنتصب شجرة الكرز العنقوديّ الكبيرة، وفي اليوم المناسب، وعند الرّيح المناسبة، يمكن للمرء أن يستلقي تحت شجرة كرزٍ، وعندئذٍ تتساقط أوراق الزهور كلّها مرّةً واحدةً، لكنْ على المرء أن يأخذ حِذره من سقوط حشرات المَنّ التي تظلّ ثابتةً في أماكنها إذا ما تُركت وشأنها، ولكنّها تتساقط ما إنْ تهتزّ الأغصان أقلّ هزّة.

بعد أشجار الكرز العنقوديّ تأتي أشجار الصّنوبر والطحالب، ويتصاعد التلّ الصخريّ، وقبل أنْ يُدهش المرء لمرأى الكهف، فهو يظهر فجأةً! إنّه كهفٌ ضيّقٌ، وتفوح منه رائحة العفن، وجدرانه سوداء ورطبة، وفي أعماقه مذبحٌ طبيعيٌّ ذو طحلبٍ أخضرَ كثيفٍ ورقيقٍ كالمُخْمل.

- «أنتِ لا تعلمين ما أعلمه». قالت صوفيا. فوضعت جدّتها كتاب القصّة البوليسيّة الذي كانت تقرأ فيه جانباً، وانتظرت.

- «هل تعلمين ما أعلمه؟». سألت صوفيا بصرامة.

- «كلّا». أجابت جدتها.



جذّفتا بقارب المستنقع، ورستا عند صخرةٍ، ثمّ زحفتا حول شُجيرة الورد. كان يوماً جيّداً لذلك الطّريق السرّيّ؛ لأنّ الجدّة كانت مصابةً بالدوار، ورأت أنّ الزحف سيكون أفضل من المشي.

- «ها هي نباتات القُرّاص». قالت.

- «لقد قلت لكِ هذا». أجابت صوفيا: «اِزحفي أسرع، إنّها مسافةٌ قصيرةٌ». ووصلتا إلى شجر الإكليليّة، والليزيماكيا، وإلى شجرة الكرز

العنقوديّ، وعندئذٍ التفتت وقالت: «الآن لكِ أن تستريحي وتدخّني لفافة تبغ». لكنّ الجدّة كانت قد نسيت علبة الثّقاب في المنزل.

استلقتا تحت شجرة الكرز العنقوديّ، وراحتا تفكّران، وسألت صوفيا: «ماذا يجب أن يكون في المذبح؟».

– «شيء جميل، أو غير عادي». قالت جدّتها.

– مثل ماذا؟

– آه، ما يمكن كلّه.

– لكنْ قولي بحقّ!

– «لا أعلم الآن». أجابت الجدّة؛ إذْ إنّها لم تكن على ما يرام.

– «ربّما كثيرٌ من الذّهب». اقترحت صوفيا: «ولو أنّ هذا ليس شيئاً غير عاديٍّ تماماً».

واصلتا الزّحف بين أشجار الصّنوبر، وخارج الكهف تقيّأت الجدّة في الطُّحلب.

– «أشياء كهذه تحدث». قالت الطّفلة: «هل أخذتِ دواءكِ: لوباترو؟».

رقدت جدّتها على طولها، ولم تنطقْ بشيء.

بعد هنيهةٍ همست صوفيا: «لديّ ما يكفي من الوقت معكِ هذا اليوم».

كان الجوّ بارداً على نحوٍ منعشٍ تحت أشجار الصّنوبر، ولم يكن ثمّة أيّ سببٍ للعجَلة، فغفَتا لبعض الوقت، وعندما استيقضتا زحفتا حتّى وصلتا إلى الكهف، ولكنّ الجدّة كانت بدينةً، فلم تتمكّن من الدّخول. «عليكِ أن تخبريني كيف يبدو المكان هناك». قالت.

– «إنّه أخضر». قالت صوفيا: «ورائحته عفنةٌ، وهو جميلٌ على نحوٍ رهيبٍ، والمكان الأعمق فيه مقدّسٌ؛ لأنّ الربَّ يعيش فيه في علبةٍ صغيرةٍ مثلاً».

- «هكذا!». قالت الجدّة، وأدخلت رأسها أبعد ما تستطيع: «وما ذاك إذنْ؟».

- «فطرٌ سيّئ». قالت صوفيا.

لكنّ الجدّة رأت أنّه فطرٌ جيّدٌ، وخلعت قبّعتها، وأرسلت حفيدتها لتجمعه، فامتلأت القبّعة بأكملها به.

- «هل قلتِ: إنّه يعيش في علبة؟». سألت، ثمّ تناولت العلبة المقدّسة: لوباترو؛ حيث إنّها الآن فارغةٌ، وزحفت صوفيا إلى داخل الكهف، ووضعت العلبة على المذبح.

أخذتا طريق العودة حول روسا روغوسا واجتثّتا أحد أبنائها لكي تزرعانه عند سلالم غرفة الضيوف. نمت الجذور بدون صعوبة من المحاولة الأولى، إضافةً إلى كميّةٍ جيّدةٍ من التُّربة، ووضعتا كلّ شيءٍ في صندوقٍ مكتوبٍ عليه «جِنّ غوردون» برز من بين العشب البحريّ، وعلى مسافةٍ أبعد قليلاً عثرتا على قبّعةٍ روسيّةٍ قديمةٍ وضعتا فيها الفطر، فاستعادت الجدّة قبّعتها.

- «تخيّلي كم من الأشياء يمكن ترتيبها!». قالت صوفيا: «هل ثمّة شيءٌ آخر نحتاج إليه؟ قولي أيّ شيء ترغبين به».

قالت الجدّة: إنّها عطْشى.

- «جيّد». قالت صوفيا، ومشت على امتداد الشّاطئ إلى أنْ وجدت قنّينةً كانت ملقاةً في القاع، خاليةً من ورقة تعريف. هسهست القنّينة عندما فتحتاها، لكنْ لم يكن فيها مياه «فيشي»، إنّما عصير اللّيمون الذي تفضّله الجدّة أكثر.

- «هل رأيتِ!». هتفت صوفيا: «كلّ شيءٍ يتدبّر. والآن، سأجد لكِ إبريقاً رشّاشاً للسّقْي».

غير أنّ الجدّة قالت: إنّها تحبُّ إبريقها القديم، وإضافةً إلى ذلك، كان لديها شعورٌ بأنّه يجب عدم تحدّي القدر زمناً أطول من اللّازم، فجذّفتا بالقارب عائدتين إلى المنزل، وكان التجذيف هادئاً ولطيفاً، ولا يزعج البطن، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عندما وصلتا إلى البيت، والفطْر كان كافياً للأُسْرة كلّها.

الطّريق الريفيّ

جرّافةٌ، ماكينةٌ هائلةٌ بلونٍ أصفرَ صارخٍ يشبه الجحيم، تدحرجت في الغابة بصخبٍ، ودويٍّ، وفمٍ راعِدٍ، وهرع الرّجال من القرية مثل نملٍ فقد صوابه، وأحاطوا بالماكينة، وصعدوا فوقها، وحاولوا إعادتها إلى الاتّجاه الصّحيح. «اللعنة!». صرخت صوفيا، ولم تسمع ما الذي صرخت به، وراحت تركض جيئةً وذهاباً وراء صخرةٍ، وفي يدها إبريق حليب، فشاهدت الماكينة تقتلع صخوراً ضخمةً كانت هناك تحت الطُّحلب منذ ألف عامٍ، والآن تُقلَع من الأرض، وتُلقى جانباً، متصدّعةً ومفصولةً عن أصلها، قُرب أشجار الصّنوبر التي انثنت وانطرحت مهترئة الجذور. «ساعدنا يا ربّ، فالغابة كلّها تختفي الآن!».

وقفت صوفيا تضرب بقدميها على الطُّحلب، وترتعد من رأسها إلى قدميها هلعاً وبهجة. الآن، يرحل الكرز العنقوديّ بصمتٍ؛ فقد غرق مثل تنهيدةٍ، وصعدت تربةٌ سوداءُ لامعةٌ، وأخذت الجرّافة قبضةً أُخرى من التّربة، وظلّت تصرخ. صاح الرّجال بعضهم لبعضٍ وكانوا متوتّرين، ولم يكن هذا عجيباً؛ فالماكينة قد استُؤجِرَتْ وكلّفت أكثر من مئة مارك في السّاعة، شاملةً رحلة المجيء، ورحلة العودة، والمخطّط له هو أن يستمرّ عمل الجرّافة حتّى أوّل خليجٍ بحريٍّ، وكان هذا واضحاً تماماً، فلم

تهتمّ الجرّافة بالمسار الممتدّ على الأرض، إنّما سارت على نحوٍ مفاجئٍ ومستقيمٍ مثل سِربٍ من القوارض، فقد كانت تُنشئ طريق سيّاراتٍ يصل إلى البحر.

«الآن». فكّرت صوفيا: «ليس من الممتع أن تكون نملةً، فماكينةٌ واحدةٌ بإمكانها أن تفعل أيّ شيء». فذهبت وجلبت الحليب والبريد وعادت، ليس على امتداد المسار، إنّما على الطّريق العريض الهائل الذي أصبح فجأةً صامتاً تماماً، وقد كانت تحفّ به على الجانبين فوضى مترامية الأطراف، كأنّ أياديَ كبيرةً قد دفعت الغابة إلى الوراء، وأحنتها، وطوتها كعشبٍ طريٍّ، عشبٍ لن يرتفع مرّةً أُخرى، وكانت الجذوع المقطوعة بيضاء يسيل منها الصّمغ، وفي جزئها العُلويّ لم يتبقَّ سوى كتلةٍ خضراءَ ساكنة الحركة، لم يتحرّك فيها أيُّ غصنٍ، ولا أيّةُ ورقةٍ في الرّيح، فالأمر مثل المشي بين جدران حجريّة؛ فالحجارة تجفّ، والتّربة التي تتشبّث بها تتحوّل إلى اللّون الرماديّ، وكانت هناك بقعٌ رماديّةٌ كبيرةٌ على الطّريق الجديد أيضاً، والجذور المقطوعة في كلّ مكانٍ، وفي بعض الأماكن شكّلوا أعمالاً فنيّةً دقيقةً مُلئت بكتلٍ من التّربة المجفّفة في الشّمس، وتهزّها خيوطٌ غير مرئيّة. كان المشهد متغيّراً، مقطوع الأنفاس، مثل الصّمت الذي يعقب انفجاراً، أو صرخةً، وتمعّنت صوفيا في كلّ شيءٍ في أثناء سَيرها في الطّريق الجديد الذي بدا أطول بكثيرٍ من الطّريق القديم، والصّمت يخيّم على الغابة، وعندما هبطت إلى الخليج البحريّ شاهدت الجرّافة متميّزةً بشكلها المحدّد أمام الماء بشكله غير المحدّد، فقد وصلت الجرّافة إلى مرج الشّاطئ، وهناك انحرفت جانباً إلى منخفضٍ في الأرض، وراحت ترفع كمّيّاتٍ من الرّمال، وقد استسلمت تلّة العشب، بخضوعٍ وخيانةٍ، وعلى نحوٍ غير مفهومٍ على الإطلاق، وهناك رقد وحش الغابة صامتاً، وفي

زاويةٍ غير طبيعيّةٍ، في صورةٍ للقوّة المُحبَطة، وإلى جانب الماكينة، جلس أميل أيكستروم يدخّن.

- «أين الباقون؟». سألت صوفيا.

- «لقد ذهبوا لجلب الأشياء التي نحتاج إليها». أجاب إيميل.

- «وما هي تلك الأشياء؟». سألت صوفيا. قال إيميل: «كما لو أنّكِ تعرفين أيّ شيءٍ عن الماكينات». مشت صوفيا على المرج العشبيّ الأخضر القويّ الذي صمد أمام العواصف كلّها، فقط بأنْ ينخفض عند العاصفة، ويسْكُن لبعض الوقت فيما يستمرّ في ضَفْر جذوره الكثيفة الصّغيرة، وبعيداً هناك، في اللّسان الصخريّ، جلست الجدّة منتظرةً عند الزورق. «يا لها من ماكينة!». فكّرت صوفيا. لا بدّ من أنّها ستُدهش؛ فالأمر يبدو كأنّ الله يمدّ يده لمعاقبة عمورة، سيكون ممتعاً إلى درجةٍ رهيبةٍ أن يَركب المرء عوضاً عن أنْ يمشي.

عيد منتصف الصّيف

كان للأُسْرة صديقٌ لم يصبح مقرّباً قطّ؛ إنّه أريكسون، وكان يقود قاربه مارّاً بهم، أو ربّما يرغب بالمجيء، لكنْ لم يتحقّق ذلك، وها قد مرّت أصيافٌ من دون أن يقترب أريكسون إلى الجزيرة، لا بقاربه، ولا بأفكاره.

كان أريكسون صغيراً وقويّاً، وله لون هذه الطّبيعة نفسه، ما عدا عينيه الزّرقاوين، وحين يتكلّم المرء عنه، أو يذكره، فسيرفع بصره تلقائيّاً، وينظر إلى البُحيرة، وكان غالباً سيّئ الحظّ، ويعاني من سوء الطّقس، أو مشكلةٍ في المحرّك، كأنْ تتمزّق شِباكُ الصّيد، أو تَعْلق في مروحة المحرّك، أو ألّا يوجد السّمك، أو الطّيور حيث كان يُتوقّع وجودهم، وإنْ نجح في الصّيد فإنّ الأسعار تنخفض؛ لذا كانت النتيجة ذاتها دوماً، لكنْ فيما عدا، وبعيداً عن هذه الأشياء الروتينيّة كلّها، التي يمكن أن تفسد سُبل عيش الشّخص، كانت هناك إمكاناتٌ مختلفةٌ تماماً، وأشياء غير متوقَّعة.

منذ أمدٍ بعيدٍ، ومن دون أن يتحدّثوا في الأمر، كانوا يدركون أنّ أريكسون لم يكن يحبّ السّمك كثيراً، ولا الصّيد، ولا محرّكات القوارب؛ فما يحبُّه شيءٌ يصعب تحديده، ولكنّه واضحٌ تماماً، وكانت أحاسيسه وأمانيه المفاجئة تطير مثل نسيم البحر فوق الماء، مرّةً هنا، ومرّةً هناك، فكان يعيش في توتّرٍ هادئٍ بلا انقطاع. البحر معرّضٌ دائماً لأحداثٍ من

نوعٍ غريبٍ، مثل: قواربَ تمضي متخبّطةً، أو تصطدم بالقاع، أو تغيّر مكانها في أثناء الّليل بتغيُّر الرّيح، وينبغي أن يكون لدى المرء معرفةٌ، وخيالٌ، وانتباهٌ لا يكلّ أبداً، وأنفٌ أيضاً بكلّ بساطةٍ، فعلى المرء أن يتشمّم دائماً حدوث أشياء كبيرة بعيداً عنه، وفي أغلب الحالات يتعلّق كلّ شيءٍ بالوقت، ففي منطقة الجُزر الداخليّة لا تحدث سوى أشياء صغيرة، ولكنْ يجب معالجتها أيضاً؛ إنّها الأشغال التي لها علاقةٌ بطلبات ضيوف الصّيف: كأنْ يرغب أحدهم بأن يكون صاري المركب فوق سقفه، أو يطلب آخرُ صخرةً دائريّةً بوزن نصف طنّ، وكلّ شيءٍ موجودٌ إذا ما بحث المرء وتوفّر له الوقت، فإذا كانت لديك القدرة على البحث، وكنت حُرّاً في أثنائه، فإنّك تعثر على أشياء لم تخطر على بالك من قبل قطّ. النّاس هنا مثلهم مثل غالبيّة البشر؛ فقد يرغبون مثلاً: في امتلاك قطّةٍ صغيرةٍ في شهر حزيران/ يونيو، ثمّ يعودون في شهر أيلول/ سبتمبر طالبين إغراق قطّتهم، وبالطبع تُلبّى طلباتهم، لكنْ أحياناً يكون لديهم أحلام، ويريدون أشياء يحتفظون بها، فكان أريكسون هو ملبّي الأحلام، فلا أحد يعلم على وجه الدقّة ما الذي وجده لنفسه، ولعلّ ما حصل عليه أقلّ بكثيرٍ ممّا يظنّه النّاس، لكنّه استمرّ مع ذلك، ربّما من أجل البحث بحدٍّ ذاته.

أحد الأشياء الغامضة والجذّابة لدى أريكسون هو أنّه لم يكن يتكلّم عن نفسه، لم يكن يميل إلى ذلك، كما أنّه لم يتكلّم عن الآخرين؛ لم يثيروا اهتمامه كثيراً، وزياراته النّادرة يمكن أن تحدث في أيّ وقتٍ من النّهار، أو الّليل، ولم يحدث قطّ أن مكث طويلاً، وقد يشرب في زيارته كوباً من القهوة، أو يأكل، أو يأخذ شيئاً قليلاً للمجاملة، ثمّ سرعان ما يصبح صامتاً وقلقاً، ويكتفي بالاستماع، ثمّ يغادر، وعندما يكون أريكسون ضيفاً عندهم فإنّه يحظى باهتمامهم الكامل، ولا أحد ينشغل عنه بشيءٍ آخر، ولا ينظرون

إلى أيّ شيءٍ آخر غيره، ويتابعون كلّ كلمةٍ يقولها، وعندما يكون شارداً، ولا يقول شيئاً، فإنّ أفكارهم تستغرق جدّيّاً في ذلك الذي لم يقُلْه.

أحياناً، يترك أريكسون هداياه على شاطئهم عند مروره في الفجر، مثل: سمكة سلمون صغيرة، أو عددٍ من سمكات القَدّ، أو وردةٍ بريّةٍ مع جذورها وتربتها في علبةٍ من الورق المقوّى، أو لوحةٍ مكتوبٍ عليها «كابينة الكابتن»، أو صندوقٍ جميلٍ مصنوعٍ يدويّاً، أو زوجٍ من فلّينات صنّارة الصّيد مختومةٍ بختمٍ مميّزٍ، والكثير من هذه الهدايا كانت تقابَل لاحقاً بتقديرٍ على شكل مبالغَ زهيدةٍ، وكانت هذه هي الإمكانيّة الوحيدة للأُسْرة لإعطاء الأحلام ثمنها، والأحلام تكلّف كمّيّةً من البنزين.

كانت صوفيا تحبّ أريكسون. لم يسألها قطّ عمّا تفعل، أو كم عمرها، إنّما كان يحيّيها بالجدّيّة نفسها التي يحيّي بها البقيّة، ويودّعها بالطّريقة نفسها؛ بانحناءةٍ قصيرةٍ، وبدون ابتسامٍ، وكانوا يرافقونه إلى حيث يقف قاربه عندما يهمّ بالمغادرة. قاربه كبيرٌ، وقديمٌ، ويصعب تشغيله، لكنْ عندما يعمل فإنّه يستمرّ بلا انقطاعٍ، ولم يكن كثير الاعتناء به؛ فيمكن رؤية مختلف أنواع الزّيوت تخرج مع النّفايات السّائلة للقارب، بينما كان الإطار الداعم له متصدّعاً، لكنّ المعدّات كانت في حالةٍ جيّدةٍ، وكان يقلي أسماكه على المحرّك السّاخن، وينام في كيس نومٍ من جلد الفقمة كان جدّه قد صنعه. التّراب، والعشب البحريّ، وقشور السّمك، والرّمل، تتبعه كلّها في كلّ مكان، وفي مؤخّرة المركب وُضعت الشِّباكُ، وطُعوم السّمك، والبندقيّة، في ترتيبٍ واضحٍ، لكنّ الله وحْده يعلم ما معنى هذه الصناديق والأكياس المصفوفة في مقدّمة المركب. كان أريكسون يلقي حبْل الإرساء في القارب ويُبحر، فتضرب مروحة المحرّك بعض الضّربات السّعيدة في القاع، إنّها معتادةٌ على ذلك، وتحتمل الكثير، ويرحل أريكسون من دون تلويحة وداع. لم يكن لقاربه اسم.

قبل عيد منتصف الصّيف بقليل رسى أريكسون، ورفع صندوقاً إلى أرض الجبل، وقال: «هذا جزءٌ من ألعابٍ ناريّةٍ حصلت عليها في مقايضةٍ، لو كان يناسبكم فسوف أرسو في عيد منتصف الصّيف؛ لأرى إنْ كانت تشتعل». كان قد ترك المحرّك يعمل طوال الوقت، ثمّ انطلق في قاربه، ووضعت الأُسْرة الصّندوق قُرب الموقد؛ لأنّه كان رطباً بعض الشّيء.

كان عيد منتصف الصّيف أكثر أهميّةً من المعتاد: فقد طلَت الجدّة الموقد باللّون الأسْود، وطلَت أغطيتَه باللّون الفضّيّ، وغسلت النّوافذ كلّها، وحتّى السّتائر، وبالطبع لم يصدّق أحدٌ أنّ أريكسون سيلْحظ ما قاموا به؛ فهو أبداً لا ينظر حوله عندما يكون عندهم في البيت، إلّا أنّهم نظّفوا البيت كونه سيأتي وحسْب، وفي اليوم السّابق كانوا قد جلبوا شجيرات البتولا، والغبيراء، وزنبق الوادي، وكان في الجُزر الكبيرة بعوضٌ بكميّاتٍ كبيرةٍ إلى درجةٍ فظيعةٍ، فنفضوا حشرات المنّ والنّمل على رمل الشّاطئ، وعادوا إلى البيت، فتحوّل البيت إلى صالة أوراقٍ خضراء، سواء في الخارج أم في الغرفة، وانتصبت كلّ شُجيرة بتولا في وعاء ماء، والزهور كلّها تقريباً كانت بيضاء في شهر حزيران/ يونيو.

تساءلت الجدّة فيما إذا كان ينبغي أن يدْعوا الأقارب إلى العيد، لكنْ لا أحد رأى أنّ هذا مناسب، حتّى أريكسون، الذي كان ذلك الشّخص الذي يأتي وحيداً، ويظلّ كذلك إلى أن يحسّ بأنّه قد حان الوقت للتّغيير.

في صبيحة عيد منتصف الصّيف كانت رياحٌ كثيفةٌ تهبّ من الشّمال.

ومع تقدُّم النّهار بدأت تُمطر، فنشر الأبُ قطعةً من القماش المشمّع أعلى كومة الحطب المشتعل على اللّسان الصخريّ، وكما يحدث دائماً، طار المشمّع مع الرّيح إلى مياه البُحيرة، فأخرج قنّينة بنزين، ووضعها خلْف الجلسة. من العار ألّا تشتعل نار الاحتفال بالعيد! ومضى اليوم متباطئاً، لم تهدأ الرّيح، فجلس الأبُ إلى منضدته يعمل، وفي الشُّرفة كانت هناك

منصّة إطلاق الألعاب الناريّة التي جلبها أريكسون، وقد توجّهت حواملها إلى الأعلى على نحوٍ مائل.

أعدّوا مائدة العشاء لأربعة أشخاصٍ، وكان يُفترض أنْ يأكل أريكسون سمك الرّنجة، ولحماً، وبطاطس، ونوعين من الخضروات، ثمّ يأتي الكُمّثرى المُخلّل.

- «إنّه لا يأكل حلويات ما بعد الطّعام». قالت صوفيا بانفعال: «ولا يأكل الخضروات؛ إذْ إنّه يقول: إنّها أعشاب. أنتِ مَنْ تأكلين هذه الأشياء».

- «أجلْ، أجلْ». قالت الجدّة: «لكنّ منظرها جيّد».

كان الشّراب في حفرة القبو تحت الأرض، وجلبوا حليباً أيضاً، ولم يكن أريكسون يشرب أكثر من قدحٍ صغيرٍ، أو اثنين من الشّراب من أجل المناسبة، لكنّه يحبّ الحليب كثيراً.

- «أبعدي منديل الطّعام». قالت صوفيا: «إنّه سخيف».

أبعدت الجدّة المناديل.

ظلّ الجوُّ عاصفاً بعنادٍ طوال اليوم، لكنْ لم تزِد قوّة الرّياح، أحياناً فقط، كانت تهطل زخّات مطرٍ، وكانت طيور خطّاف البحر تزعق في أرجاء الّلسان الصّخريّ، واستمرّ هذا حتّى المساء.

- «في شبابي». فكّرت الجدّة: «كان الطّقس في عيد منتصف الصّيف مختلفاً جدّاً: لم تكن هناك نسمةٌ واحدةٌ، ولا حتّى نفَس واحد من الرّيح، وكان البستان مخضرّاً، وعندنا شعار عيد منتصف الصّيف مع أكاليل تصعد حتّى قمّته. الأمر الوحيد المؤسف هو أنّه لم تكن هناك أيّة ريحٍ بالمرّة. آنذاك، لم تكن تحصل عندنا حرائق قطّ. ترى لماذا لم تكن تحصل عندنا حرائق؟». كانت قد رقدت في السّرير، وهي تنظر إلى الأعلى حيث أوراق البتولا الخضراء، ثمّ غفت.

فجأةً! سُمِعت صرخةٌ، وضُرِب الباب، وكانت الغرفة مظلمةً قليلاً؛ إذْ لم يكن مسموحاً إشعال مصباحٍ في ليلة عيد منتصف الصّيف، فنهضت الجدّة، وأدركت أنّ أريكسون قد جاء. «أسرعي!». صاحت صوفيا: «لا يريد أن يأكل! يجب أن نخرج ونبدأ على الفور، يجب أن نرتدي ثياباً دافئةً، وعلى وجْه السّرعة!».

تعثّرت الجدّة، وعثرت على سترتها، ووجدت سروالها الدّافئ وعصاها، وفي آخر دقيقةٍ دسّت دواء «لوباترو» في جيبها. ركض الآخرون جيئةً وذهاباً، وسمعت هي محرّك قارب أريكسون يدور في الميناء. كان الجوُّ أكثر إشراقاً في الجبل، ومضت الرّيح إلى الغرب، وجلبت معها نثيثاً من المطر، وفجأةً! تيقّظت الجدّة تماماً، وهبطت بمفردها إلى الشّاطئ، وصعدت القارب. لم يُلقِ أريكسون التحيّة، بلْ ألقى نظرةً حادّةً على البُحيرة، وعندما انطلق القارب لم يتبادلا أيّة كلمة. جلست الجدّة على أرضيّة القارب، وخلال مسير القارب رأت ذلك البحر الصاعد والهابط في حركاتٍ قصيرةٍ على حافّة القارب، ورأت أولى نيران عيد منتصف الصّيف تضيء حول السّاحل في الشّمال، لم تكن كثيرةً، وكانت بالكاد تُرى في الضّباب المطريّ.

قاد أريكسون المركب على نحوٍ مستقيمٍ جنوباً، صوب منطقة الجُزر الخارجيّة، وكان كثيرون جدّاً غيره يقودون مراكبهم خارجين من المنطقة نصف المظلمة كأنّهم ظلالٌ، وعلى البحر الرماديّ كانت تتمايل صناديقُ مثقلةٌ بقنانٍ مستديرةٍ جميلةٍ، وقد ارتفعت حوافّها الخارجيّة فوق سطح الماء بلونها الأسْود، أسْود مثل هذه القوارب التي تسير بأقصى سرعتها وتبطئ عند تحميل الصناديق، ثم تنطلق مرّةً أُخرى، واستمرّ إنقاذ الصّناديق الطافية مثل رقصةٍ متوازنةٍ بدقّةٍ، وكان حرس السّاحل يقودون قواربهم ذات المحرّكات القويّة، ويلتقطون الصّناديق القريبة إليهم، ويغضّون

الطرْف عن البقيّة، والذين لديهم قوارب كلّهم كانوا في تلك الّلحظة هناك في البحر، ويديرون ظهورهم للآخرين، وبينما تولّى أريكسون القيادة كان والد صوفيا يمسك بحافّة القارب، ويحمّله بالصّناديق. أسرعوا في عملهم، واستعجلوا في كلّ حركةٍ حتّى لا يخسروا ثانيةً واحدةً، وفي النّهاية باتوا يعملون بانسجامٍ مثاليٍّ مع القارب المتحرّك إلى الأمام، بحيث كانت رؤيته تبعث السّرور، والجدّة ترى ذلك كلّه، وتقدّره، وتحفظه في الذّاكرة، وكانت بركات عيد منتصف الصّيف؛ أي: صناديق قناني الشّراب، ما تزال تتمايل فوق الموج بكميّاتٍ كبيرةٍ في أرجاء الخليج الفنلنديّ، وبعيداً عبر البرّ الرئيس كانت ترتفع بضعة ألعابٍ ناريّة ضعيفة، هي سهام الضّوء التي يُطلقها الحالمون صَوب سماء منتصف الصّيف الرماديّة؛ أمّا صوفيا، فكانت تغفو على أرض القارب.

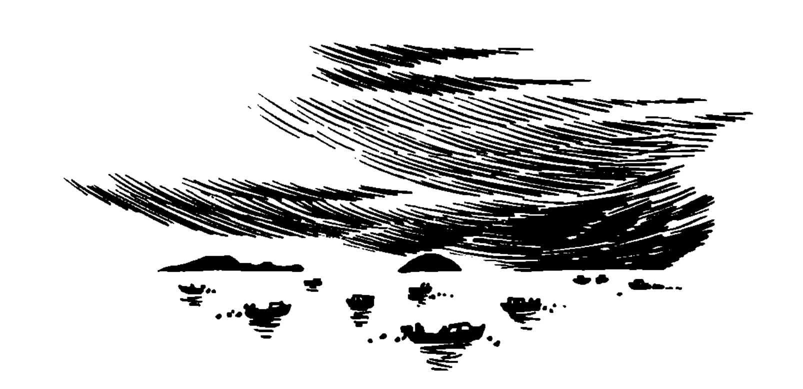
أُنقِذَ كلّ شيءٍ، سواء انتهت الصّناديق إلى الأيدي الصّحيحة أم إلى الأيدي الخطأ، فالمهمّ أنّها لم تَضِع بلا جدوى، تفرّق الأسطول في وقتٍ واحدٍ تقريباً مع اقتراب الصباح، واتّخذ كلّ قاربٍ وجهته الخاصّة، وراحت القوارب تبتعد وتغيب، وعند الفجر كان البحر فارغاً تماماً؛ هدأت العاصفة، وتوقّف المطر، وكان صباحُ عيد منتصف الصّيف صافياً وجميلاً؛ حيث رتّب ألوانه في السّماء، والطّقسُ بارداً جدّاً، وعندما توقّف أريكسون بقاربه عند الجزيرة أخذت طيور خطّاف البحر تصرخ، فأبقى المحرّك يدور إلى أنْ نزل الجميع، فأطفأه.

للحظةٍ فكّر الأبُ بأنّه كان يمكن لأريكسون أن يتشارك معهم الغنيمة، لكنّها كانت فكرةً عابرةً فقط، فصنع شطائر للجميع، وسحب أحد صناديق الألعاب الناريّة إلى الشُّرفة، ووضع صواريخ الألعاب الناريّة في منصّاتها.

لم يشتعل الصّاروخ الأوّل، ولا الثّاني، لم يشتعل أيٌّ منها؛ لأنّها جميعها قد تضرّرت من الماء. لم يشتعل سوى الصّاروخ الأخير؛ حيث

انطلق صَوب مشرق الشّمس في هيئة مطرٍ من النّجوم الزّرقاء، فعادت طيور خطّاف البحر تزعق، وكانت هذه نهاية العيد.

قاد أريكسون قاربه عائداً صَوب الجنوب؛ لكي لا يفوته شيءٌ من بركات عيد منتصف الصّيف.



الخيمة

كانت جدّة صوفيا رائدة كشّافةٍ في شبابها، وفي الحقيقة، بفضلها تمكّنت الفتيات من أنْ يُصبحْنَ رائدات كشّافةٍ في ذلك الوقت، وهُنّ لم ينْسَيْن قطّ كم كان الوقت الذي قضينه آنذاك ممتعاً، وغالباً ما يكتُبْن للجدّة ليُذكّرنَها بهذه الحادثة، أو تلك، أو يقتبسْنَ أغنيةً ممّا كنَّ يُغنّين، وهُنّ يتأمّلْنَ نار المُخيّم؛ كانت الجدّة تعتقد أنّ هذا كلّه قد مضى وانقضى، وأنّ هؤلاء الفتيات العجائز عاطفيّات بعض الشّيء، لكنْ على كلّ حال كانت تَذْكرهنّ بودٍّ لبعض الوقت، ثمّ فكّرت بأنّ حركة الكشّافة أصبحت كبيرةً جدّاً، ولم تعد فيها تلك اللّمسة الشخصيّة، وهكذا نسيت كلّ شيء. لم يصبح أبناء الجدّة روّاد كشّافةٍ يوماً؛ فهُم -بهذا الشكل، أو ذاك- لم يكن لديهم وقت آنذاك، ولم يرغبوا بالتحدّث في الموضوع.

في أحد الأصياف جاء والد صوفيا بخيمةٍ، ونصبها في الممرّ العميق الذي يشقّ الجبل الصّخريّ؛ لكي يختفي فيها عندما يأتي أناسٌ كثيرون، وكانت الخيمة شديدة الصِّغر؛ بحيث كان على المرء أن يزحف لكي يدخلها، وتكفي لشخصين إذا ما استلقيا إلى جانب بعضهما، لكنْ لم يكن يُسمح بإدخال شمعةٍ، أو مصباحٍ إلى داخل الخيمة.

- «هل هذه خيمة كشّافة؟». سألت صوفيا.

نفخت الجدّة من أنفها استهزاءً «لقد قمنا بخياطة خِيامنا بأنفسنا». قالت، وهي تتذكّر كيف كانت تبدو الخِيام كبيرةً، وثابتةً، وبلونٍ رماديٍّ بُنّيّ؛ أمّا هذه، فمجرّد لعبةٍ، لعبة صفراء تصلح لضيوف الشُّرفة، وليست شيئاً يستحقّ أن يمتلكه المرء.

- «أليست خيمة كشّافة؟». كرّرت صوفيا بقلق، وعندئذٍ قالت جدّتها: «ربّما هي كذلك على كلّ حال، ولكنّها ليست حديثةً جدّاً». زحفتا إلى داخل الخيمة، ورقدتا إلى جانب بعضهما.

- «لن تنامي الآن». قالت صوفيا: «يجب أنْ تحكي لي عن الحياة في الكشّافة، وكلّ شيءٍ فعلتُنّه».

مرّ زمنٌ طويلٌ جدّاً منذ أنْ كانت لدى الجدّة رغبةٌ في الحديث عن كلّ شيءٍ فعَلْنه، لكنْ وقتها لم يهتمّ أحدٌ بالسّؤال، والآن تلاشت عندها تلك الرّغبة.

- «كانت لدينا نيران المخيّم». ردّت بإيجازٍ، وقد دَهمها على حين غِرّةٍ شعورٌ بالكآبة.

- ثمّ ماذا؟

- وجذعُ شجرةٍ يظلّ مشتعلاً لوقتٍ طويلٍ، كنّا نجلس حوله عندما يكون الجوّ بارداً؛ لنتناول الحساء.

- «كم هو عجيب!». فكّرت الجدّة: «لا أستطيع أن أصف أكثر من ذلك، لا أجد الكلمات، أو ربّما لا أبذل جهداً كافياً فقط؛ لقد مرّ زمنٌ طويلٌ على ذلك، ولا أحد ممّن حولي يعرف عنه، وإذا لم أجد رغبةً في الحديث عنه فسيمضي كأنّه لم يحدث قطّ، وسينغلق ويضيع إلى الأبد». ونهضت وقالت: «بعض الأيّام لا أتذكّرها على وجه الدقّة، لكنْ ذات مرّةٍ ستحاولين النوم في خيمةٍ ليلةً بكاملها».

حملت صوفيا ثياب نومها إلى الخيمة، وعند الغروب أغلقت غرفة اللّعب وودّعتها، وذهبت وحيدةً تماماً إلى الممرّ الجبليّ الذي أصبح في ذلك المساء مكاناً بعيداً بلا حدود، هجره الله، والإنسان، والكشّافة؛ أرضاً قفراءَ، واللّيل أمامها. أغلقت سحّاب الخيمة، واستلقت، وتغطّت باللّحاف حتّى فمها، فتوهّجت الخيمة بضوء الغروب، وأصبحت على الفور ودودةً وصغيرةً للغاية. لا يمكن النّظر إلى الداخل، ولا يمكن النّظر إلى الخارج، واستراحت في شرنقةٍ من النّور والصّمت، وما إنْ غابت الشّمس حتّى صارت الخيمة حمراء، فغَفَت.

كانت اللّيالي طويلةً، وعندما أفاقت صوفيا لم ترَ شيئاً غير الظّلام. طار طائرٌ فوق الممرّ الصّخريّ العميق، وصاح قريباً أوّل الأمر، ثمّ صاح، وهو بعيد. كانت ليلةً هادئةً، وبالكاد تسمع صوت البحر، ولم يمشِ أحدٌ في الممرّ الصّخريّ، ومع ذلك كانت تسمع صوت الحصى كما لو أنّه تحت أقدامٍ تخطو، وكانت الخيمة تحميها، وتُدخِل اللّيل قريباً إليها، ولصيقاً كما لو أنّها كانت تنام على الأرض. زعقت طيورٌ جديدةٌ بطرائق مختلفةٍ، وكان الظّلام ممتلئاً بحركاتٍ وأصواتٍ غريبةٍ، من تلك التي تعصى على التفسير والاستنتاج، بل حتّى على الوصف.

- «آهٍ يا إلهي». قالت صوفيا: «لا تدعني أخاف». وعلى الفور راحت تفكّر كيف سيكون الشّعور بالخوف. «آهٍ يا إلهي، لا تدعهم يحتقرونني إذا تركت نفسي أخاف».

أصاخت السّمع لأوّل مرّةٍ في حياتها، وعندما خرجت إلى الممرّ الصّخريّ أحسّت لأوّل مرّةٍ بالأرض تلمس باطن قدميها، وأصابع القدمين، أرضٌ باردةٌ، كأنّها مفروشةٌ بالحبوب، وشديدة التّعقيد، وكانت تتغيّر في أثناء مشْيها فوقها؛ حصى، وعشب رطب، وأحجار ملساء كبيرة، وأحياناً تلامس ساقيها نباتاتٌ عاليةٌ كأنّها شُجيرات.



كانت الأرض سوداء إلّا أنّه كان للسّماء والبحر ضوءٌ رماديٌّ باهت. صغُرت الجزيرة، وقد استراحت في البحر مثل ورقةٍ منجرفةٍ في الماء، لكنْ كان هنالك ضوءٌ في نافذة غرفة الضّيوف، فطرقت صوفيا الباب بتمهُّلٍ؛ إذْ إنّ الأصوات كلّها أصبحت أعلى من قوّتها الحقيقيّة.

- «كيف تجري الأمور؟». سألت الجدّة.

- «حسنة». أجابت صوفيا، وجلست عند قدم السّرير، وراحت تنظر إلى المصباح، والشّباك، ومعاطف المطر المعلّقة على الحائط. كفّت الأسنان عن الاصطكاك، وقالت: «ليس ثمّة ريحٌ على الإطلاق».

- «لا». قالت الجدة: «الجوّ في غاية الهدوء».

كانت لدى الجدّة بطانيّتان، لو ألقى المرء البطانيّة الأولى على السجّادة، وجلب وسادةً، فسيحصل على سريرٍ، وهذا ليس مثل العودة إلى غرفة الّلعب، هذا مثل أن تكون في الخارج تقريباً. كلّا! كان هذا داخل البيت على كلّ حال، وفي المقابل، لو كان المرء وحيداً في الخيمة فسيكون مع ذلك نائماً في الخارج.

- «ما أكثر الطّيور هذه الّليلة!». قالت الجدّة.

كانت هناك إمكانيّةٌ أُخرى؛ أن تأخذ معك بطانيّةً، وتنام في الشُّرفة قريباً جدّاً من جدار البيت؛ أي: في الهواء الطّلْق، ووحيداً في الوقت نفسه. آهٍ يا إلهي!

قالت الجدّة: «لم أستطع النّوم؛ فرحتُ أفكّر بأشياء حزينة».

جلست في السّرير، وتناولت لفائف التبغ، وأعطتها صوفيا علبة الثّقاب بمحض العادة، لكنّ أفكارها كانت في مكانٍ آخر. «هل عندكِ بطانيّتان؟». قالت.

- «أعني». قالت الجدّة: «أنّ الأشياء تنكمش، ثمّ تنزلق إلى الوراء، وما كان في السّابق ممتعاً لم يعد يعني شيئاً؛ ولهذا أشعر بالفقر. إنّه جحودٌ على نحوٍ ما. على كلّ حال، كان بإمكان المرء أن يتحدّث عن ذلك».

بدأت صوفيا تشعر بالبرد من جديد؛ كانوا قد تركوها تنام في الخيمة على الرغم من كونها صغيرةً على النّوم في الخِيام، ولا أحد منهم أدرك

كيف كانت تشعر، فقط تركوها ترقد وحيدةً في ذلك الممرّ الصخريّ. «هل يُعقل هذا؟». قالت بغضب: «ماذا تعنين بقولكِ: إنّ هذا غير لطيف؟!».

- «آهٍ بحقّ السّماء». أجابت الجدّة: «ما قلته كلّه هو أنّه عندما يكون الشّخص كبير السنّ هكذا، فثمّة أشياء كثيرة لا يعود قادراً على المشاركة فيها...».

- ليس صحيحاً؛ أنتِ تشاركيننا طوال الوقت، نحن نقوم بالأشياء نفسها تماماً!

- «انتظري قليلاً!». قالت الجدّة باستياءٍ كبير: «لم أكمل كلامي! أعرف أنّني أشارككم، لقد أُتيح لي أنْ أشارككم لأمدٍ طويلٍ جدّاً، ورأيت، وعشت بأقصى ما أستطيع، وكان هذا لا يُصدّق، وأقول لكِ: إنّه لا يُصدّق، لكن الآن كأنّ كلّ شيءٍ ينزلق بعيداً، ولا أذكر تلك الأشياء، ولا أهتمّ بها، ومع ذلك فأنا الآن أحتاج إليها».

- «ما الذي لا تذكرينه؟». سألت صوفيا بقلق.

- «كيفيّة النّوم في خيمة!». صاحت جدّتها، وأطفأت لفافة التبغ، واستلقت محدّقةً في السقف. «في بلدي». قالت ببطء: «لم يكن متاحاً للفتيات قطّ أن ينمْن في خيمة؛ أنا التي مكّنتهنّ من ذلك، ولم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق، لقد كان ذلك رائعاً، والآن لا أستطيع حتّى أنْ أحكي كيف كان ذلك».

صاحت الطّيور من جديد، وطار سِربٌ كبيرٌ عابراً، وهو يصيح طيلة الوقت، وكانت النّافذة أكثر قتامةً بكثير من اللّيل؛ بسبب المصباح المشتعل.

- «الآن، سأقول لكِ كيف يكون ذلك». قالت صوفيا: «المرء يسمع كلّ شيءٍ بوضوحٍ أكبر، والخيمة شديدة الصِّغر». وفكّرت قليلاً، ثمّ واصلت: « تشعرين بالاطمئنان، ومن الممتع أن يسمع المرء كلّ شيء».

- «أجلْ». قالت الجدّة: «المرء يسمع كلّ شيءٍ هناك في الخارج».

أحست صوفيا بالجوع، فأخرجت علبة طعامٍ من تحت السّرير، فأكلتا خبزاً جافّاً، وسكّراً، وجُبناً.

- «أشعر بالنّعاس بعض الشّيء». قالت صوفيا: «وأظنّ أنّ عليّ العودة».

- «اِفعلي». قالت الجدّة، وأطفأت المصباح، وبعد لحظات الظّلام الأولى عاد الضّوء من غرفة الضّيوف، فصار بالإمكان الرؤية بوضوح، فخرجت صوفيا، وأغلقت الباب، وعندما ذهبت التفّت الجدّة ببطّانيّتها، وحاولت أن تتذكّر كيف كان عليه الحال في الماضي، فتذكّرت على نحوٍ أفضل، وفي الحقيقة تذكّرت قسماً كبيراً؛ صور جديدة تتداعى، وتكثر وتكثر. كان الجوّ بارداً في الفجر، لكنّها استغرقت في النّوم في دفء سريرها.

الجار

بنى رجُل أعمالٍ «فيلّا» على صخرة «النّورس الصّائح». في البدء، لم يتكلّم أحدٌ عن الأمر، كانت لديهم عادة تطوّرت على مرّ السّنين هي ألّا يتحدّثوا عن الأشياء المُحرجة، وبذلك يقلّ حرجها، غير أنّهم كانوا على درايةٍ تامّةٍ بموضوع الفيلّا.

كلّ شخصٍ يعيش في جزيرةٍ لا بدّ من أن يترك عينيه تنزلقان على الأُفق، يتأمّل الخطوط المقوّسة للصّخور، والعلامات البحريّة الموجودة في المكان نفسه دائماً؛ إنّ هذا الإدراك الهادئ لوضوح رؤيته، ولكون كلّ شيءٍ كما ينبغي أن يكون عليه، يمنحه شعوراً بالطمأنينة، لكنْ لم تعد الرؤية صافيةً؛ إذْ قطَعَتْها فيلّا كبيرة مربّعة الشّكل، مَعْلَمٌ جديدٌ ومُهدِّدٌ، شرخٌ عميقٌ في رؤية الأُفق الذي ظلّ لزمنٍ طويلٍ ملكاً لهم، واكتسب الأرخبيلُ المجهول -الذي كان عتبة الجزيرة للبحر- اسماً غريباً، وأغلق بحيراته الشاطئيّة، والأسوأ هو أنّ أُسْرة صوفيا فقدت صفة الأُسرة السّاكنة في أبعد نقطةٍ في الأرخبيل، فقد أخذت الفيلّا الجديدة هذا اللّقب.

أقلّ من مِيلٍ يفصل بينهم وبين جارهم الجديد، وربّما كان الرجُل اجتماعيّاً أيضاً، ومن المُحتمل جدّاً أن يكون مُحبّاً للاختلاط، وأنْ تكون لديه أُسْرةٌ كبيرةٌ تطرد الطّحالب من الصّخور، وتفتح المذياع، وتحبّ

الحديث؛ لقد كان هذا يحدث طوال الوقت، في كلّ مكانٍ، سواء هنا أم في أبعد مكانٍ في البرّ الرئيس.

ذات صباحٍ باكرٍ سُمع طرْقٌ على السّقف الصّفيحيّ للفيلّا؛ إنّه سقفٌ كبيرٌ غاضبٌ وبرّاقٌ تحت سحابةٍ من طيور النّورس الصّائح، وطيور خطّاف البحر، وكان هذا إيذاناً بأنّ الفيلا قد أصبحت جاهزةً، والرّجال الذين كانوا يعملون فيها غادروا في قاربهم، ولم يبقَ سوى انتظار قدوم رجُل الأعمال، لكنّ الأيّام مرّت، ولم يأتِ.

في نهاية الأسبوع، أخذت الجدّة وصوفيا قارب التجذيف، وانطلقتا في المياه في جولةٍ صغيرة، وعندما وصلتا إلى مستنقع أسماك الفرخ، قرّرتا أنْ تواصلا التّجذيف حتّى جُزَيرة «كنيكت» الصّخريّة للبحث عن الأعشاب البحريّة، ومن البُحيرة الشّاطئيّة تحت جُزيرة «كنيكت» الصّخريّة لا يتبقّى بعْدُ سوى بضع ضرباتٍ بالمجاذيف للوصول إلى «صخرة النّورس الصّائح»، لكنْ لم تَجِدا عند الصّخرة رصيفاً للقوارب، كان هناك فقط سدٌّ عالٍ من الحصى، انتصبت في وسطه لوحةٌ كبيرةٌ مكتوبٌ عليها: «منطقة خاصّة؛ ممنوعٌ النّزول هنا».

- «لنذهب إلى الشّاطئ». قالت الجدّة، وكانت غاضبةً جدّاً، وبدت صوفيا خائفةً. «ثمّة فرقٌ كبير». أوضحت جدّتها: «ليس هناك إنسانٌ حَسنُ التّربية سينزل إلى الشّاطئ عند جزيرة شخصٍ آخر، لكنْ عند وضع لوحةٍ كهذه فهو تحدٍّ للآخرين».

- «بالطبع». قالت صوفيا، وقد زادت جدّيّاً معرفتها بالحياة، ثمّ رستا بالقارب عند اللّوحة.

- «ما نقوم به الآن». قالت الجدّة: «هو مظاهرة؛ المرء يُظهر اعتراضه، هل فهمتِ؟».

- «مظاهرة». كرّرت حفيدتها مضيفةً بطريقةٍ لطيفةٍ: «لنْ يصبح رصيفاً بحرياً جيّداً أبداً».

- «كلّا، لنْ يصبح كذلك». أيّدت الجدّة: «وأُنظري، إنّ بابهم يقع في الجهة الخاطئة من البيت، ولن يستطيعوا فتحه باتّجاه الجنوب الغربيّ، وهناك حاويات مياههم؛ هاها، بلاستيك بالطبع».

- «هاها». قالت صوفيا: «بالطبع من البلاستيك».

اقتربتا إلى الفيلّا، وشعرتا أنّ الجزيرة قد تغيّرت؛ لم يعُد للبرّيّة وجودٌ، وأضْحت الجزيرة أكثر انخفاضاً، بلْ مسطّحةً تقريباً، ولها مظهرٌ عاديٌّ مُخزٍ. لم تكن الأرض خَرِبةً، على العكس؛ فقد بنى المالك جسور نقلٍ عريضةً فوق نباتات الخَلَنْج والتوت البريّ، وكان حَذراً مع الغطاء النباتيّ للجزيرة، ولم تتعرّض شُجيرات العَرعر الرماديّة للقطع، لكنْ على كلّ حالٍ بدت الجزيرة مسطّحةً؛ لأنّه لا يناسبها أنْ يوجد فيها منزلٌ، وعند النّظر إلى الفيلّا عن قُرب تبدو منخفضةً بعض الشّيء، وربّما كانت جميلةً كمُخطّطٍ، وقد تكون جميلةً في أيّ مكانٍ، لكنْ ليس هنا.

صعدتا الدكّة، وتحت الإفريز كان قد وضع لوحةً نُحت عليها اسمُ المنزل: «فيلّا صخرة النّورس الصّائح»، وكانت منحوتةً على نحوٍ جميلٍ، وتشبه تلك الإشارات الجغرافيّة المرفرفة التي يعثر عليها في الخرائط القديمة، وفوق الباب عُلِّقَ فانوسان جديدان من فوانيس القوارب مع مرساةٍ، ووُضعت في أحد الجانبين طوّافةٌ عاديّةٌ حمراء حديثة الطّلاء، وفي الجانب الآخر الكثير من الطوّافات الزجاجيّة مرتّبةً ترتيباً فنيّاً.

- «هكذا يكون الأمر في البداية دائماً». قالت الجدّة: «ربّما سيتعلّم».

- «يتعلّم ماذا؟». سألت صوفيا.

فكّرت الجدّة قليلاً وكرّرت: «سيتعلم». وتقدّمت إلى مصاريع النّوافذ

التي تغطّي الجدار بأكمله تقريباً، وحاولت النّظر إلى الداخل، كانت المصاريع مغلقةً بأقفالٍ، والأبواب كذلك، فأخرجت سكّينها، وجهّزت مفكّ البراغي، وكان القفل يحوي براغي نحاسيّة، وتمّ الأمر بكلّ سهولة.

– «أليس هذا سطواً؟». همست صوفيا.

– «بلى، وماذا تظنّين؟». ردّت جدّتها: «لكنْ بطبيعة الحال، في الحالات العاديّة، لا يجوز أبداً فعل ذلك». وفتحت إحدى المصاريع، ونظرت إلى الداخل، كانت غرفةً كبيرةً وموقداً، وأمام الموقد كان لدى مالك البيت كراسٍ خفيضةٌ من الخيزران، وعليها وسائدُ كثيرةٌ، وكانت المائدة من الزّجاج السّميك مع ملصقاتٍ زاهيةٍ تحت الزّجاج. بدت الغرفة لصوفيا جميلةً جدّاً، لكنّها لم تجرؤ على أنْ تقول ذلك، وانتبهت الجدّة إلى لوحةٍ لسفينةٍ شراعيّةٍ وسْط العاصفة، بإطارٍ ذهبيٍّ، وخرائط، ومناظير، وآلات سُدْس، ونماذج لقوارب، ومقاييس لسرعة الرّياح؛ ببساطة، متحفٌ بحريّ.

– «لديه لوحةٌ كبيرة». قالت صوفيا متردّدة.

– أجلْ، كبيرة جدّاً؛ الأشياء التي لديه كلّها كبيرة.

جلستا على الدكّة، مديرتين ظهريهما في اتّجاه البيت، وراحتا تنظران إلى الجُزَيرة الصّخريّة الطّويلة التي أصبحت دفعةً واحدةً وحيدةً وموحِشة.

– «على كلّ حال». قالت صوفيا: «هو لا يعرف كيف تُغرَق القمامة، ولا يعرف أنّه يجب ملْء العُلب والزّجاجات قبْل إغراقها؛ نفاياته البشعة كلّها ستأتي إلى شاطئنا، وتعلق بشباكِنا، وكلّ شيءٍ عنده كبيرٌ جدّاً!».

كان يصل إلى سمعهما صوت المحرّك منذ بعض الوقت من دون أن تنتبها إليه، ثمّ أخذ الصوت يقترب، وتحوّل إلى هديرٍ، ثمّ تحوّل إلى خرخرةٍ، ثمّ انقطع، وخيّم صمتٌ مشحونٌ ومخيفٌ، فنهضت الجدّة بأسرع

ما تستطيع وقالت: «اِذهبي واُنظري، لكنْ لا تُظهري نفسك». زحفت صوفيا تحت أشجار الحور الرّجراج، وعادت شاحبة. «إنّه هو، إنّه هو». همست على نحوٍ محموم: «إنّه المالك!».

ألقت الجدّة نظراتٍ حادّةً حولها، وسارت قليلاً إلى الأمام، وإلى الوراء، وقد تملّكها الرُّعب. «لا تدعيه يراكِ!». كرّرت: «راقبي ما يفعل، لكنْ لا تدعيه يراكِ!».

استلقت صوفيا على بطنها تحت أشجار الحور الرّجراج، ودفع المالك القارب نحو أرض الشّاطئ، وكان القارب من خشب الماهوجني، وفوق كابينته هوائيّ، وعلى سطحه الأماميّ وقف كلبٌ وصبيٌّ نحيلٌ بثيابٍ بيضاء، فقفزوا جميعاً إلى أرض الشّاطئ في وقتٍ واحد.

- «لقد عثروا على قاربنا». همست صوفيا: «إنّهم قادمون إلى هنا!».

أخذت الجدّة بالسّير في داخل الجزيرة بخُطى قصيرةٍ وسريعةٍ، وكانت عصاها تضرب الأرض، وتنثر صغار الحصى والطُّحلب، وهي متصلّبةٌ كعصا، ولم تتفوّه بكلمةٍ، فكان هروباً محْضاً وغريزيّاً، لكنّها لم تستطع التّفكير في شيءٍ أفضل، وسبقتها صوفيا راكضةً، وعادت، وبدأت الرّكض في دوائر حَول جدّتها؛ إنّه عارٌ عظيمٌ أن يُكتشَفا في جزيرةٍ تعود إلى شخصٍ آخر؛ لقد وقعتا فيما لا يُغتفر.

وصلتا عند الأحراش في الجانب القصيّ من الجزيرة، فدخلت صوفيا تحت شُجيرات الصّنوبر الزاحف واختفت. «أسرعي!». صرخت في توتّرٍ شديد: «أسرعي بالزّحف!». زحفت الجدّة خلْفها على نحوٍ أعمى، ومن دون تفكيرٍ، وكانت تشعر بالدُّوار، وبقليلٍ من الغثيان، وليس من المناسب لها القيام بحركاتٍ سريعةٍ، فقالت: «لكنّ هذا سخيفٌ تماماً».

- «لا بدّ من أنْ نفعل هذا». همست صوفيا: «عندما تُظلِم سنتسلّل نازلتين إلى القارب، ونعود إلى البيت».

شقّت الجدّة طريقها داخلةً تحت الصّنوبرة التي قطّعت جزءاً من شَعرها، ولم تقُل شيئاً، وبعد قليلٍ سمعتا نُباح كلب.

- «إنّه كلبهم». تنفّست صوفيا في أُذن الجدّة: «ألم أخبركِ أنّ معهم كلباً؟».

- «لم تخبريني». قالت الجدّة بغضب: «ولا تُهسهِسي في أُذني؛ فهي تؤلمني بما فيه الكفاية».

كان نُباح الكلب يقترب، وعندما شاهدهما الكلب تعالى صوت نُباحه. كان كلباً صغيراً وأسْود، غاضباً وخائفاً في الدّرجة نفسها، ويهتزّ بمشاعر مُختلطة.

- «كلبٌ طيّب». قالت الجدّة متملّقةً: «أُسكت أيّها الوغد الصغير!». عثرتْ على قطعة سكّر في جيبها، فألقتْ بها، ما جعل الكلب هستيريّاً تماماً.

- «أنتم يا من في الدّاخل!». نادى المالك، وكان منحنياً على أطرافه الأربعة، وينظر تحت الصّنوبرات: «الكلب ليس خطراً! اسمي مالاندر، وهذا ولدي كريستوفر، وندعوه توفه».

زحفت الجدّة إلى الأمام وقالت: «هذه حفيدتي صوفيا». كانت متحفّظةً، فنزعت أشواك ورق الصّنوبر من شَعرها على نحوٍ خفيٍّ قدْر الإمكان، وحاول الكلب أن يعضّ عصاها، فأوضح المالك مالاندر أنّ الكلبة تريد فقط أن تلعب، وأنّ اسمها دليلة: «دليلة تريدكِ أنْ تلقي بالعصا؛ لكي تركض هي وتجلبها، كما تعلمين».

- «حقّاً؟». قالت الجدة.

كان الابن نحيل الرّقبة، طويل الشَّعر، وبذل جهداً هائلاً كي يبدو مسيطراً. راقبته صوفيا ببرودٍ، وبتهذيبٍ شديدٍ أعطى المالك يده للجدّة،

وساروا ببطءٍ عائدين عبْر الدُّغل، وحكى لهما أنّ المنزل الريفيّ مبنيٌّ بطرازٍ ساحليٍّ بسيط؛ لأنّه أراده بهذا الشّكل، وأنّ المرء وسط الطّبيعة يصبح أكثر انسجاماً مع نفسه، والآن ها هُم جيران، أليس كذلك؟ ألستم أنتم الذين تسكنون في الجزيرة القريبة؟ رفعت صوفيا بصرها، لكنّ وجْه الجدّة كان لا يُسبَر غورُه، وهي تجيب بأنّهم يعيشون في هذه الجُزُر لسبعٍ وأربعين سنةً، فأثار هذا انطباعاً كبيراً لدى مالاندر، وتغيّرت نبْرته، وقال شيئاً عن البحر الذي كان مرتبطاً به بشدّة، ومع ذلك فإنّ البحر هو البحر، ثمّ شعر فجأةً بالحَرج، وتوقّف عن الكلام، وراح الابن يصفِر ويُدحرج مخروط صنوبرٍ حتّى الدكّة؛ حيث كان القفل ما يزال هناك على المصطبة مع البراغي من حوله.

- «هاها!». قال الابن: «لصوصٌ جوّالون كالعادة».

اغتمّ وجْه الأب، وتلمّس القفل وقال: «تخيّل أنْ يحدث هذا على يد سكّان السّاحل! لقد كنت دائماً معجباً بسكّان الجُزر الخارجيّة...».

- «لا بدّ من أنّ الفضول أثارهم فقط». قالت الجدّة بسرعة: «كما تعلم، يشعر النّاس بالفضول عندما يغلق شخصٌ الأبواب على نفسه، فهم ليسوا معتادين على ذلك... من الأفضل جدّاً أنْ تترك الباب مفتوحاً مع وضع المفتاح على مسمارٍ مثلاً... ». نسيت نفسها، وغدا وجْه صوفيا أحمرَ كالنّار.

دخلوا البيت ليتناولوا قليلاً من الشّراب احتفاءً بالجِيرة. «مرحباً بكم في دار أبي». قال توفه مالاندر: «أنتم أوّلاً!». كانت الشّمس تملأ الغرفة الكبيرة، فيما كانت المصاريع تُفتح واحداً بعد الآخر، وأوضح الأبُ أنّها نافذةٌ للفُرْجة على المنظر الخارجيّ، ورجاهُم أن يجلسوا ويُزيلوا الكلفة، بينما يذهب لجلْب بعض المشروبات.

جلست الجدّة على أحد كراسي الخيزران، ووقفت صوفيا عند ظهر الكرسيّ تنظر من تحت غرّتها.

- «لا تُظهري غضبك هكذا». همست الجدّة: «هذه هي الحياة الاجتماعيّة، وعليكِ أن تتعلّمي كيف تكون».

دخل مالاندر بزجاجاتٍ وكؤوسٍ، ووضعها على المائدة. «كونياك، ويسكي». قال: «لكنّكما بالتّأكيد تفضّلان عصير ليمون».

- «أنا أحبّ الكونياك». أجابت الجدّة: «كأسٌ صغيرةٌ، وبلا ماء، شكراً. صوفيا، ماذا تريدين؟».

- «الآخر». همست صوفيا في أذنها.

- «صوفيا تفضّل عصير اللّيمون». أوضحت الجدّة وفكّرت: «لا بدّ من أنْ نعلّمها السّلوك الحَسن. لقد أخطأنا، فلا بدّ من أن تعتاد لقاء أناسٍ لا تحبّهم قبْل أنْ يفوت الأوان».

شربوا نخباً معاً، وسأل مالاندر: «هل تجني الصنّارات صيداً وفيراً هنا في هذا الوقت من السّنة؟».

ردّت الجدّة بأنّ السّمك يتوفّر فقط عبْر الصّيد بالشِّباك؛ حيث يوجد سمك القدّ، وسمك الفرخ، وأحياناً السّمك الأبيض قُرب الشّواطئ، وأوضح المالك مالاندر أنّه في الحقيقة لا يحبّ صيد السّمك لذاته، فما يحبّه هو الطّبيعة البِكْر والبدائيّة؛ أي: الأماكن غير المسكونة، والوحدة عامّةً، وكان الابن مُحرجاً، فأدخل يديه أعمق ما يستطيع في جيبَيْ بنطاله الضيّق. - «الوحدة». قالت الجدّة: «بالتّأكيد، إنّها لرفاهية».

- «إنّها تطوّر المرء، أليس كذلك؟». قال مالاندر.

أجابت الجدّة: «بلى، لكنْ يمكن أن يكون المرء وحيداً أيضاً، وهو بين آخرين، ولو أنّ هذا أكثر صعوبةً».

- «كلّا كلّا، بالطّبع». قال مالاندر بانتباهٍ وتردّدٍ بعض الشّيء، ثمّ حلّ صمتٌ طويل.

- «سكّر». همست صوفيا: «إنّه حامض!».

- «حفيدتي تطلب شيئاً من السكّر في شرابها». قالت الجدّة. ولصوفيا قالت: «لا تعلّقي شعركِ برقبتي طوال الوقت، اِجلسي، ولا تنفخي في أُذني».

أخبرهم توفه مالاندر أنّه يودّ أنْ يقوم ببضع رمياتٍ بالصنّارة من اللّسان الصخريّ، وأخذ عصا الصنّارة من الحائط ومضى.

- «أنا -أيضاً- مُحبّةٌ للجُزر المعزولة». قالت الجدّة بصوتٍ عال.

- «إنّه فقط في السّادسة عشرة من العمر». قال مالاندر، فسألته عن عدد أفراد الأُسْرة فأجابها: «خمسة، مع الأصدقاء والمساعَدة المنزليّة، وقليل من كلّ شيء». وفجأةً! اكتأب واقترح أنْ يأخذا كأساً أُخرى.

- «لا، شكراً». قالت الجدّة: «أعتقد أنّنا يجب أنْ نعود إلى البيت. كان الكونياك لذيذاً جدّاً». في الطّريق إلى الخارج توقّفت لكي تنظر إلى المَحار في النّافذة، فقال: «لقد جمعتها من أجل الأطفال».

- «أنا أيضاً أجمع المَحار». ردّت الجدّة. كان الكلب يقف منتظراً في الخارج، ويتظاهر بِعَضِّ عصاها. «صوفيا». قالت الجدّة: «ألقي بشيءٍ للكلب». وألقت الطّفلة عصاً التقطها الكلب على الفور. «جميل يا دليلة!». قالت صوفيا: «إذا لم يكن ثمّة شيءٌ آخر، فسيكون عليها أن تتعلّم تذكّر أسماء النّاس، فهذا أيضاً فنٌّ اجتماعيٌّ جيّد».

عند الشّاطئ أخبرها مالاندر أنّه سوف يبني رصيفاً للقوارب في نهاية المطاف، فنصحته الجدّة بأن يستعمل عوضاً عن ذلك البكرات والرافعات؛ لأنّ الأرصفة تتحرّك مع الجليد، أو من الممكن كذلك زورق سحبٍ، أو

عوّامة بحريّة، ثمّ فكّرت: «ها أنا أبالغ في انشغالي ثانيةً؛ وأصبح متطفّلةً عندما أكون مرهقةً، فمن الطّبيعيّ أن يحاول صُنع رصيفٍ بحريٍّ، الجميع يفعل ذلك، ونحن أيضاً فعلنا ذلك». كانت المجاذيف في الجهة الخطأ من القارب، وتشابكت بحبْل الإرساء، فوضعتا القارب في اتّجاه العودة باضطّرابٍ، وبلا تركيزٍ، وظلّ مالاندر يمشي على طول الشّاطئ متابعاً إيّاهما، وهُما تجذّفان راحلتين، وتبعهما حتّى نهاية اللّسان الصخريّ، وهناك وقف ملوّحاً لهما بمنديل.

عندما ابتعدتا مسافةً كافيةً قالت صوفيا: «هو هو يا يا».

- «ماذا تقصدين بـ(هو هو يا يا)؟». سألت الجدّة: «هو يريد أن يعيش في سلامٍ، لكنّه لا يعرفَ هذا».

- كيف؟

- وهو سيبني رصيفه على كل حال.

- وكيف تعرفين ذلك؟

- «يا طفلتي الطيّبة». قالت الجدّة بصبرٍ نافد: «يجب أنْ يُتاح لكلّ إنسانٍ ارتكاب الأخطاء بنفسه». كانت متعبةً جدّاً، وتريد الوصول إلى البيت، وجعلتها الزّيارة حزينةً على نحوٍ كئيبٍ، وكان لدى مالاندر فكرة، وحاول فهْمها، ولكنّ ذلك سيستغرق وقتاً، وأحياناً تتكشّف للمرء أشياء عندما يكون الوقت قد فات، ولا قدرة للمرء على البدء من جديدٍ ثانيةً، أو ينسى فكرته في أثناء الطّريق حتّى من دون أن يُدرك ذلك، وبينما كانت الجدّة تجذّف عائدةً نظرت إلى البيت الكبير الذي كان يقطع الأُفق، ورأت أنّه يبدو مثل علامةٍ بحريّةٍ، إذا حدّق المرء فيه، وكان يفكّر بشيءٍ آخر، فسيكون تقريباً علامةً بحريّةً، وستكون عندئذٍ إشارةً واقعيّةً إلى أنّ المسار البحريّ يتغيّر عند هذه المنطقة.

كلّما هبّت عاصفةٌ تتذكّران مالاندر، وتفكّران بطرائق مختلفةٍ بأنْ تُنقذا قاربه، ولم يحدث قطّ أنْ قابل زيارتهما بالمثل؛ ولهذا صار بيته مَعْلماً آسِراً دوماً للتأمّل والتفكير به.



الرّداء

كان لوالد صوفيا رداءٌ متعلّقٌ به بشدّة، وكان يصل حتّى قدميه، مصنوعٌ من بطانيّةٍ سميكةٍ ومتصلّبةٍ كثيراً، وازداد تصلّبها بفعل الماء المالح، والتّربة، وأشياء أُخرى جلبها الزّمن معه، وقد جاء الرّداء في الأصل من ألمانيا على الأغلب، وكان أخضر ذات يومٍ، وفي جهته الأماميّة تُرى بقايا لنظام ربطٍ معقّدٍ، وعدد من الأزرار الكبيرة بلون الكهرمان الغامق ما تزال في مكانها، وحين يُفتح الرّداء يصبح واسعاً كخيمة.

في البداية، اعتاد الأبُ في شبابه الجلوسَ على اللّسان الصّخريّ مرتدياً رداءه عند هبوب العاصفة، وهو يتأمّل الأمواج، وفيما بعد كان يرتاح لارتدائه في أثناء العمل، أو حين يشعر بالبرد، أو ببساطةٍ حين يريد أنْ يختبئ.

كان الرّداء أغلب الوقت مُعرّضاً للتهديد بأشكالٍ مختلفة، وعلينا فقط أنْ نتذكّر حين قَدِمَ إلى الجزيرة بعض الأقارب الطيّبين، ونظّفوا المكان كي يُفاجئوا ويُسعدوا الأب، فكنسوا أشياء كثيرة كانت الأسْرة تحبّها، لكنّ أسوأ ما في الأمر هو عندما حملوا الرّداء إلى البحر، ورموه ليطفو مبتعداً، وفيما بعد زعموا -مسوّغين فعلتهم- أنّ الرّداء كانت تفوح منه رائحةٌ، ومن الطّبيعيّ أنْ تفوح منه رائحةٌ؛ فهذا من ضمن سِحْره، فالرائحة شيءٌ

مهمٌّ، فهي تذكّرنا بما مررنا به كلّه، وإنّها غشاءٌ مكوّنٌ من ذاكرةٍ وأمانٍ، وكانت تفوح من الرّداء رائحة الشّاطئ والدّخان أيضاً، لكنّهم لم يتمكّنوا من الشعور بها، وعلى كلّ حال رجع الرّداء، فقد عصفت الرّيح، وغيّرت اتّجاهها، ثمّ غيّرته ثانيةً، وضَربت الأمواج على الجزيرة، فجاء يومٌ جميلٌ بالرّداء إلى البيت، لكنّه عاد حاملاً رائحة العشب البحريّ، وفي ذلك الصّيف كان الأبُ يمشي تقريباً بلا ثيابٍ تحت الرّداء، ثمّ جاء ذلك الرّبيع الذي اكتشفوا فيه أنّ عائلةً من الفئران تسكن في جيب الرّداء، وكانت تحيط بالياقة مادّةٌ ناعمةٌ مكسوّةٌ بالشَّعر، قضمتها الفئران، واستعملتها كأغطية سريرٍ، ووسّعت هذه الأغطيّة بمناديلَ ورقيّةٍ ممضوغةٍ مضغاً ناعماً، وذات مرّةٍ شاط الرّداء عندما نام الأبُ قريباً جدّاً من النّار.

عندما كبر الأبُ وضع الرّداء في العلّيّة، وأحياناً كان يذهب إلى هناك ليتأمّل، ويفترض الآخرون دائماً أنّه إنّما يفكّر بالرّداء، وكان موجوداً عادةً تحت النّافذة الجنوبيّة الصّغيرة في العلّيّة، طويلاً، ومعتماً، وغامضاً.

في الصّيف الذي مرّت فيه صوفيا بسنّ التمرّد، كان الجوّ ممطراً وبارداً، ويصعب أن يكون المرء في الخارج عندما يشعر بالتّعاسة؛ لهذا نشدت وحْدتها في العلّيّة، وجلست في صندوقٍ من الورق المقوّى، وتمعّنت في الرّداء، وراحت تتفوّه بأشياء مريعةٍ ومدمّرةٍ، وكان صعباً جدّاً على الرّداء أنْ يعترض.

بين الحين والآخر، كانت تلعب الورق مع جدّتها، وكلتاهما كانتا تغشّان بلا خجلٍ، وكانت أماسي لعب الورق تنتهي في كلّ مرّةٍ بشِجار، ولم يحدث هذا قطّ معهما من قبل، فحاولت الجدّة أن تتذكّر سنيّ التمرّد التي عاشتها هي؛ لكي تفهم الوضع الحاليّ، ولكنّ الشّيء الوحيد الذي تتذكّره عن نفسها هو طفلةٌ عاقلةٌ أكثر من المعتاد، وأدركت بحكمتها أنّ

سنّ التمرّد يمكن أن يُؤجّل حتّى سنّ الخامسة والثمانين، وقرّرت أن تنتبه إلى نفسها. في الخارج كانت تمطر طوال الوقت، والأبُ يعمل من الصّباح إلى المساء، وظَهرهُ في اتّجاه الغرفة، ولم يعرفوا قطّ إنْ كان يستمع إليهما أم لا.

- «يا يسوع». قالت صوفيا: «أنتِ تجلسين مع الملك، ولا تقولين شيئاً».

- «لا تسيئي استخدام اسم الربّ». أجابت الجدّة.

- لم أقل: الربّ؛ قلت: يسوع.

- إنّه بأهميّة الربّ.

- كلّا، هو ليس كذلك!

- بلى، هو كذلك!

ألقت صوفيا بأوراق الّلعب على الأرض وصاحت: «لا شأن لي بعائلته كلّها! لا شأن لي بالعائلات كلّها!». وصعدت سلالم العلّيّة، وصفقت الباب بقوّةٍ خلفها.

كانت العلّيّة واطئةً؛ بحيث يتوجّب على المرء فيها الانحناء، وإذا لم ينْحنِ بحذرٍ فسيضرب رأسه بالعوارض الخشبيّة، والمكان مزدحمٌ للغاية، فليس ثمّة سوى ممرّ واحد ضيّق بين تلك الأشياء كلّها التي تُحفظ هنا، وتُصان، وتُنسى؛ الأشياء التي كانت موجودةً على الدّوام، ولم يعثر عليها حتّى الأقارب، وثمّة ممرٌّ بين الفتحتين: الجنوبيّة، والشماليّة، وقد طُلي السّقف بين الفتحتين بالأزرق، ولم يكن مع صوفيا مصباحٌ يدويٌّ، وكان المكان معتماً، فتحوّل الممرّ إلى شارعٍ مهجورٍ في ضوء القمر بين منازل متفرّقة، وطويلٍ بلا حدّ، وفي نهاية الشّارع ثمّة نافذةٌ ذات سماءٍ بيضاء من ضوء القمر، وتحت النّافذة كان الرّداء هناك، كومة من الطيّات المتصلّبة

السّوداء كالفحم جاثمة وسْط ظلّها الخاصّ. أغلقت صوفيا غطاء الفتحة بصفقةٍ شديدةٍ جدّاً، وواصلت الزّحف، ثمّ جلست في صندوقها الورقيّ المقوّى، وكان الرّداء هناك، وأحد الكُمَّين مُلقى أمامه عبْر الرّقبة المفتوحة الفاغرة فاها، فنظرت إليه، وبينما هي تنظر ارتفع الكُمّ قليلاً فقط، وتسلّلت حركةٌ خفيفةٌ تحت الرّداء حتّى نهاية القدَم، فتغيّرت الطيّات على نحوٍ غير ملحوظٍ، وسكنتْ حركة الرّداء ثانيةً، لكنّها رأت ذلك بالفعل! كان هناك، داخل الرّداء، شيءٌ حيٌّ، أو ربّما كان الرّداء كلّه حيّاً، فلجأت صوفيا إلى أسهل طريقةٍ متاحةٍ للهروب في حالات المحنة والرُّعب؛ لقد غَفتْ، وكانت ما تزال غافيةً عندما وضعوها في سريرها، لكنْ في الصّباح كانت تعلم بوجود خطرٍ في الرّداء، ولا أحد غيرها يعرف ذلك، فاحتفظت لنفسها بهذه الحقيقة المذهلة، وظلّت مبتهجةً تقريباً لعدّة أيّام. توقّف المطر، ورسمت صوفيا زخّات مطرٍ متفرّقةً، حيث جعلت القمر بالغ الصِّغر، ومنسيّاً في سماءٍ شاسعةٍ من الظّلمة، ولم تُر رسوماتها أحداً، وكانت تفكّر: الخطر يكمن في إحدى طيّات الرداء، عميقاً في الدّاخل؛ إنّه يتحرّك أحياناً، ويزحف إلى الخلف، إنّه مرعبٌ، ويُظهر أسنانه، وهو أخطر من الموت!

عند كلّ غروبٍ، كانت صوفيا تتسلّق السلّم المتنقّل، وتدفع باب الفتحة لتنظر إلى داخل العلّيّة، وإذا مدّت رقبتها فستتمكّن من رؤية زاويةٍ صغيرةٍ من الرّداء.

– «ماذا تصنعين؟». سألت الجدّة.

– «ليس من شأنكِ يا فضوليّة!». ماءت صوفيا بأكثر نبْراتها إزعاجاً: «باه، باه!».

– «أغلقي الفتحة، إنّها تُحْدِث تيّار هواء». قالت الجدّة: «اُخرجي

وافعلي شيئاً ما». واستدارت صوب الحائط، وواصلت القراءة في كتابها، وأصبحتا كلتاهما لا تُحتمَلان، ولم تعودا قادرتين على الاختلاط ببعضهما، وكانتا تتشاجران بأسلوبٍ خاطئٍ، والأيّام غائمةٌ مع رياحٍ متقلّبةٍ، والأبُ يعمل على طاولته طوال الوقت.

كانت صوفيا تفكّر أكثر فأكثر بالرّداء؛ فالشّيء الذي يعيش داخل الرّداء كان سريعاً كالسّهم، ولكنْ باستطاعته الخداع بالكُمون بلا حراكٍ لوقتٍ طويل، ويستطيع أن يقلّص حجمه لينزلق إلى الداخل من خلال فُرجة الباب، وأنْ يُكوّر نفسه من جديد، ويزحف تحت السّرير مثل ظلٍّ، إنّه لا يأكل، ولا ينام أبداً، ويكره الجميع، خاصّةً أُسْرته، وصوفيا أيضاً لم تأكل؛ أي: لم تأكل سوى الشّطائر، وقد لا يكون خطأها أن تَنْفد الزّبدة، وينفد الخبز، ولكنْ على كلّ حالٍ توجّه الأب ذات يومٍ إلى المتْجر للتزوّد بالموادّ الغذائيّة، فوضع إبريق الماء في القارب، وعبوات الوقود والبنزين، وتناول قائمة المشتريات من الحائط، وغادر. كانت الرّياح جنوبيّةً غربيّةً عندما غادر، وتصاعدت بعد بضع ساعاتٍ؛ بحيث اعتلت الأمواج اللّسان الصّخريّ، فحاولت الجدّة سماع النشرة الجوّيّة من المذياع، لكنْ لم تعثر على الزرّ الصّحيح، وحاولت منْع نفسها من الذّهاب إلى النّافذة الشّماليّة والنّظر، فلم تفهم كلمةً واحدةً ممّا كانت تقرأ في الكتاب.

هبطت صوفيا إلى الشّاطئ، وصعدت ثانيةً، فجلست عند الطّاولة. «وأنتِ فقط تقرأين وتقرأين». قالت، ورفعت صوتها صارخةً: «أنتِ تقرأين، وتقرأين، وتقرأين!». وألقت بنفسها فوق الطّاولة، وراحت تبكي، فنهضت الجدّة وقالت: «سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام». وأحسّت بشيءٍ من الغثيان، وأخذت تبحث عن دواء «لوباتروت» وراء السّتارة.



واصلت صوفيا البكاء، لكنْ ظلّت تراقب جدّتها من تحت يدها. «أنا أيضاً أحسّ بالغثيان!». صرخت، ونهضت، وتقيّأت فوق البساط، ثمّ صمتت وشحبت، وجلست على السّرير.

- «اِستلقي». قالت الجدّة، فاستلقت صوفيا، كلاهما اسْتلقتا وأصْغَتا إلى الرّيح في الخارج، وهي تهبّ هبّاتٍ قصيرةً عنيفة.

- «في القرية»، قالت الجدّة: «في القرية قد يضطرّ الشّخص للانتظار لوقتٍ طويلٍ في المتْجر؛ فهناك على الدّوام طابور، والنّاس يتعاملون مع الأمر ببساطةٍ، ثمّ إنّ عليه أنْ ينزل إلى الرّصيف، ويملأ العُبوات بالبنزين والوقود، وعليه أيضاً أنْ يجلب البريد من شُرفة صاحب المتْجر، ويبحث فيه ليأخذ ما يخصّه، وإذا كان هناك وصْل استلام نقودٍ، فيجب الدّخول من أجل ختمها، وهذا يعني شُرب فنجانٍ من القهوة، ثمّ عليه أنْ يدفع رسْم الإيجار، وقد يحتاج وقتاً طويلاً جدّاً».

- «وماذا بعد ذلك؟». قالت صوفيا.

- «بعد ذلك يجب وضع كل شيءٍ في القارب». ردّت الجدّة: «يجب أنْ يُخزَّن ويُغطّى حتّى لا يبتلّ، وفي أثناء نزوله إلى القارب يتذكّر أنّ عليه التقاط بعض الزّهور، وشراء خبزٍ للحصان، وأن يكون الخبز في أسفل مكانٍ من كيس المشتريات...».

- «لقد أكلتُ شطائرَ أكثر ممّا ينبغي!». صاحت صوفيا، وعادت تبكي: «أشعر بالبرد!».

حاولت الجدّة وضع بطانيّةٍ فوقها، لكنّ الطّفلة رفست ودفعت البطانيّة عنها، وصرخت بأنّها تكرههم جميعاً.

- «أُسكتي!». صاحت الجدّة: «أُسكتي! وإلّا سأتقيّأ عليكِ». فسكتت صوفيا تماماً، ثمّ قالت: «أريد الرّداء».

- «ولكنّه في العلّيّة». قالت الجدّة.

- «أريده». ردّت حفيدتها.

عندها تسلّقت الجدّة سُلّم العلّيّة، وسارت الأمور معها على نحوٍ جيّدٍ نوعاً ما، فزحفت إلى الأمام نحو النّافذة، ووصلت إلى الرّداء وسحبته معها عائدةً إلى غطاء الفتحة، ومن هناك أسقطته في الكوخ، وجلست

تستريح قليلاً، وساقاها فوق الحافّة. لم تصعد هذا المكان منذ زمنٍ بعيدٍ جدّاً، وقرأت المكتوب على الصّناديق: حبال، أدوات صيد، عُلب، أشياء مختلفة، خِرَق وسراويل قديمة. لقد خطّت هذه الكلمات بنفسها، وكانوا قد طَلَوا السّقف باللّون الأزرق، لكنْ لم يكن الطّلاء يحتوي كثيراً من الغراء، فتخلّع.

- «ماذا تفعلين؟». نادت صوفيا: «هل تشعرين بالغثيان؟».

- «لا». أجابت الجدّة عبْر الفتحة: «أشعر بتحسُّن». وبحذرٍ شديدٍ أنزلت إحدى ساقيها، ونظرت إلى السُّلّم المتنقّل، ثمّ استدارت ببطءٍ على بطنها، وأنزلت السّاق الأُخرى.

- «على مهلك!». صاحت صوفيا من الأسفل، وشاهدت ساقَيّ الجدّة المتصلّبتين تنتقلان من درجةٍ إلى أُخرى، وأخيراً وصلت إلى الأرض، فتناولت الجدّة الرّداء، وجاءت إلى السّرير.

- «عليكِ أن تنفضيه أوّلاً». قالت صوفيا: «لكي يخرج».

لم تفهم الجدّة، لكنّها نفضت الرّداء على كلّ حال، فانزلق شيء ما خارجاً من خلال كُمّ الرّداء، واختفى في فُرجة الباب. كانت للرّداء الرائحة القديمة ذاتها، وكان ثقيلاً جدّاً، وقد شكّلَ على الفور كهفاً دافئاً مظلماً، فغفتْ صوفيا على الفور. جلست الجدّة عند النّافذة الشماليّة لتنتظر، والرياح تعصف بشدّة، والشّمس بدأت بالغروب، وكان نظرها بعيداً، وقد شاهدت القارب قبل نصف ساعةٍ من وصوله، مشكلاً شارباً أبيض من زَبَد البحر، يظهر حيناً، ويختفي أحياناً.

عندما استقرّ القارب في ملاذه رقدت في سريرها، وأغمضت عينيها، وبعد قليلٍ دخل والد صوفيا الكوخَ، وكان مبتلّاً كُلّيّاً، فوضع عنه السِّلال، وأشعل الغليون، ثمّ أخذ المصباح وخرج لكي يملأه بالوقود.

السجق البلاستيكيّ الهائل

كانت صوفيا تعلم أنّ العديد من الجُزر الصّغيرة جدّاً ليس فيها تربة، إنّما نباتٌ متحلّلٌ، والنّبات المتحلّل مزيجٌ من الأعشاب البحريّة، والرّمل، وفضلات الطّيور التي لا تُقدّر بثمن؛ ولهذا ينمو على نحوٍ جيّدٍ بين الصّخور، إنّه يُزهر في كلّ عامٍ على مدى بضعة أسابيع، في كلّ شقٍّ في الجبل، وبألوانٍ أقوى بكثيرٍ ممّا في أيّ مكانٍ آخر في البلاد كلّها، لكنّ النّاس المساكين الذين يعيشون في هذه الجُزر الخضراء ضمن الأرخبيل لا يملكون سوى حدائق عاديّة؛ حيث يمكن لهم أنْ يتركوا أطفالهم يصرفون طاقتهم باقتلاع الأعشاب الضارّة، وحمْل الماء، وفي المقابل، الجزيرة الصّغيرة بإمكانها أن تعتني بنفسها؛ فهي تشرب ماء الثلج، ومطر الربيع، وأخيراً النّدى، وإذا حلّ الجفاف تنتظر الجزيرة الصّيف التالي، وعندئذٍ ستنشغل بصُنع زهورها، وقد اعتادت هذه الزّهور ذلك، ومكثت هادئةً في جذورها. «لا داعي للشّعور بالأسف على هذه الزهور». قالت الجدّة.

ظهَرَ -أوّلاً- نبات الملْعقيّة: وهو بعُلوّ عدّة سنتمراتٍ، ومهمٌّ جدّاً للبحّارة الذين يعيشون على كعك السُّفن، وظهَرَ الثّاني بعد عشرة أيّامٍ في أحد الأماكن التي لا تصل إليها الرّيح، قُرب العلامة البحريّة، وهو «زهرة زوجة الأب»، وقد اعتادت صوفيا وجدّتها الذّهاب للتفرّج عليها، أحياناً

تتفتّح في أواخر أيّار/ مايو، وأحياناً في أوائل حزيران/ يونيو. كانتا تطيلان التمعُّن فيها، وقد سألت صوفيا: «لماذا هذا النّبات مهمٌّ إلى هذه الدرجة؟». فأجابتها الجدّة: «لأنّه يظهَر أوّلاً».

– «كلّا، إنّه الثّاني». قالت صوفيا.

– «لكنّه دائماً ينبت في المكان نفسه». قالت الجدّة. وفكّرت حفيدتها بأنّ النّباتات الأُخرى جميعها تفعل هذا أيضاً، بشكلٍ، أو بآخر، لكنّها لم تقُلْ شيئاً.

تمشي الجدّة كلّ يومٍ حول الشّواطئ لتتابع ما يحدث، فقد تعثر على قطعة طُحلبٍ مُقتلَعةٍ، فتعيدها إلى مكانها الصّحيح؛ ولأنّ الجدّة تجد صعوبةً في الوقوف على قدميها بعد الجلوس، فقد برعت جدّاً في استعمال العصا؛ فكانت تشبه طائرَ زقزاقٍ كبيراً حين تمشي ببطءٍ، وبساقين متصلّبتين، وتتوقّف كثيراً، وتدير رأسها هنا وهناك، وترى الأشياء التي حدثت كلّها، ثمّ تعاود المشي.

لم تكن الجدّة منطقيّةً تماماً طوال الوقت؛ فعلى الرغم من أنّها كانت تعلم أنّه لا داعي للتأسّي على جُزرٍ صغيرةٍ قادرةٍ على رعاية شؤونها بنفسها، إلّا أنّها تصبح شديدة القلق عند حلول الجفاف، فكانت عند الغسق تأتي بعُذرٍ ما لكي تنزل إلى مستنقع الماء حيث أخفت إبريقاً تحت أشجار جار الماء، وتغرف بالكوب آخِر قطرات ماءٍ من القعر، ثمّ تتجوّل وترشّ قليلاً من الماء هنا وهناك على النّباتات التي تحبّها أكثر من غيرها، وتعود فتخفي الإبريق، وفي الخريف، كانت الجدّة تجمع البذور البريّة في عُلب الكبريت، وفي اليوم الأخير في الجزيرة تزرعها في الأنحاء، ولم يعلم أحدٌ بأماكنها.

بدأ التغيّر الكبير مع وصول عددٍ من قوائم أنواع الزّهور إلى والد

صوفيا عبْر البريد، وقتها لم يعُد يقرأ أيّ شيءٍ آخر عداها، ثمّ كتب إلى هولندا، فأرسلوا له صندوقاً ممتلئاً بأكياسٍ احتوى كلٌّ منها على بُصيلاتٍ بنّيّةٍ وصفراء، محاطةٍ بزغبٍ خفيفٍ يحميها، وأرسل الأب في طلب صندوقٍ آخر، وعندها حصل على هدايا خاصّة من أمستردام، وهي: صندلٌ من الخزف على شكل مزهريّةٍ، وبُصيلاتٌ من شركةٍ كان اسمها «هويت فان مويك» تقريباً، وفي وقتٍ متأخّرٍ من الخريف، رجع الأب وحْده إلى الجزيرة، وزرع بُصيلاته، وظلّ طوال الشّتاء يقرأ عن تلك النّباتات، والشُّجيرات، والأشجار؛ ليحاول فهمها إلى أعمق درجةٍ ممكنةٍ، فقد كانت جميعها حسّاسةً، ومدلّلةً، وينبغي التّعامل معها علميّاً وبعنايةٍ شديدة، ولم تكن تلك النّباتات تقدر على العيش من دون تربةٍ أصليّةٍ، وسقايةٍ في أوقاتٍ محدّدة، وكانت تجِبُ تغطيتها في الخريف؛ لكي لا تتجمّد، وكشْفها في الرّبيع؛ لكي لا يُصيبها العَفن، وحمايتها من فأرة الحقل، ومن العواصف، والحرارة، والصّقيع اللّيليّ، ومن البحر بالطبع؛ هذا كلّه قد عرفه الأب، وربّما كان هذا هو سبب اهتمامه.

عند عودة الأُسْرة إلى الجزيرة، كان لديهم قاربان مربوطان إلى مقطورة السّحب، وقد تدحرجت إلى أرض الشّاطئ حُزَمٌ من التّربة السّوداء الأصليّة المجلوبة من المناطق الداخليّة، واستقرّت على طول الشّاطئ كلّه مثل أفيالٍ نائمة. صناديقُ، وأكياسٌ، وسلالٌ مع شتلاتٍ بأكياسٍ بلاستيكيّةٍ قد حُمِلت إلى الشُّرفة، وشُجيراتٌ، وأشجارٌ كاملةٌ بجذورها محمولةٌ في أكياسٍ، ومئات الأُصص الصّغيرة المصنوعة من النّبات المتفحّم، والممتلئة بالبراعم الحسّاسة التي يجب أن تعيش داخل المنزل في مرحلتها الأولى.

تأخّر الرّبيع، وكلّ يومٍ كانت تعصف وتهطل زخّاتُ خليطٍ من المطر والثلج، وكانوا يشعلون النّار حتّى يهتزّ الموقد، ويعلّقون البطانيّات أمام

النّوافذ جميعها، وقد كدّسوا الأكياس على الحائط، وصنعوا ممرّاتٍ ضيّقةً بين النّباتات التي كانت تتزاحم على الأرض لكي تبقى دافئةً، وأحياناً، تفقد الجدّة توازنها، فتجلس عليها، لكنّ معظمها كان يستقيم مرّةً أُخرى. صفّوا الحطب حَول الموقد ليجفّ، وعلّقوا الملابس في السّقف، وكانت شجرة الحَور، والإسمنت، والشُّجيرات، في الشُّرفة تحت الأرضيّة البلاستيكيّة، واستمرّت العاصفة، وتحوّل خليط المطر والثلج تدريجيّاً إلى مطرٍ مَحْض.



كان والد صوفيا يستيقظ كلّ يومٍ عند السّاعة السّادسة، فيُشعل النّار، ويُعِدُّ الشّاي، ويُجهّز شطائرَ للأُسْرة، ثمّ يخرج، فيفتّت النّباتَ المتحلّل إلى كُتلٍ كبيرةٍ مُسطّحةٍ، ويلتقط قطعاً نظيفةً من القاعدة الصّخريّة للجبل، ويحفر حُفراً عميقةً في الغابة، وفي كلّ مكانٍ في الجزيرة، ويملأ الأرض

الوعْرة بتربةٍ أصليّةٍ سوداء، وكان يُدحرج الصّخور الكبيرة، ويبني أسواراً؛ لكي يجعل البستان محمياً من الرّياح، وقد وضع تعريشةً للنّباتات المتسلّقة أعلى جدار الكوخ وأشجار الصنوبر، وحفر بِركةً لإنشاء سدٍّ خرسانيٍّ هناك.

وقفت الجدّة في النّافذة تنظر. «سوف ترتفع مياه البِركة عشرين سنتمتراً». قالت: «وهذا ما لا تحبّه شُجيرات العرْعر».

- «سينمو هنا زنبق البِرْكة المرقّط، وزنبقُ الماءِ الأحمر». قالت صوفيا: «من يهتمّ برأي شُجيرات العرعر؟».

لم تقُل جدّتها شيئاً، لكنّها قرّرت أنّه في يومٍ جميلٍ سوف تنقذ ذلك النّبات المتحلّل الكسير، وتقلبه إلى الجهة الصّحيحة؛ لأنّها كانت تعلم أنّه ممتلئٌ بزهور الأُقحوان.

في المساءات كان الأب يُشعل غليونه، ويُطيل التّفكير في التّركيب الكيميائيّ للتّربة، وكانت قوائم أنواع الزّهور تغطّي الطّاولة والسّرير، فيما تضيء الصّور الزّاهية في شُعاع المصباح، وتعلّمت صوفيا وجدّتها أسماء الأشياء كلّها، وذاكَرتا الأسماء مع بعضهما، ووضعتا قصاصاتٍ على كلّ اسم.

- «تاج القيصر». قالت صوفيا: «تاج القيصر! هذا أحلى وقعاً من اسم زهرة زوجة الأب».

- «لا أدري إنْ كانت أجمل». قالت الجدّة: «فالاسم الحقيقيّ لـ«زهرة زوجة الأب» هو بنفسج ثلاثيّ اللّون، هكذا هو، وبالمناسبة، الناس الجميلون حقّاً لا يحتاجون إلى لوحاتٍ تحمل أسماءهم».

- «بلى، لدينا لوحة عنوان على بابنا في البلدة». قالت صوفيا، وعادتا إلى كتابة القصاصات.

في إحدى الّليالي، سكنت العاصفة، وتوقّف المطر، فاستيقظت الجدّة بفعل الصّمت وفكّرت: «الآن سوف يبدأ بالزّراعة».

وعند شروق الشّمس سطع الضّوء في الكوخ، وكانت السّماء بلا غيومٍ، والبحر والجزيرة يتبخّران، فارتدى والد صوفيا ثيابه، وخرج حريصاً على عدم إصدار أيّ صوتٍ، فنزع الغطاء البلاستيكيّ عن شجرة الحَور، وحملها إلى حُفرتها فوق مرْج الشّاطئ، وكانت الشّجرة بطول ثلاثة أمتارٍ ونصف، وقد وضع الأب تراباً حَول جذورها، ودعّم الجذْع بحبالٍ من الجهات جميعها، على نحوٍ شديد الثّبات، ثمّ حمل الورود إلى الغابة، ووضعها في الحرْش، ثمّ أشعل غليونه.

بعد أنْ أخذت النبْتات جميعها مكانها في الأرض، تبع ذلك وقتٌ طويلٌ من الانتظار؛ يوم هادئ دافئ يتبعه آخر. فتحت البُصيلات الهولنديّة أغلفتها البنيّة، ونمتْ عالياً على نحوٍ مستقيم، وداخل السدّ أخذت الجذور البيضاء تتحرّك في الطّين، محصورةً بشبكةٍ معدنيّةٍ صغيرة العيون، ومثبّتةٍ بالحجارة، وراحت الجذور الجديدة تبحث عن مواطئ أقدامٍ لها في أنحاء الجزيرة، ودبّت الحياة في الجذوع والسّيقان جميعها، وذات صباحٍ طُرق الباب لتدخل صوفيا صارخةً: «ظهر زهر التوليب!».

خرجت الجدّة بأسرع ما يمكنها، ووضعت نظّاراتها الطبّيّة، وكان هناك رمحٌ رفيعٌ أخضرُ بارزٌ من الأرض، وهي بدايةٌ واضحةٌ ومميّزةٌ لزهر التّوليب، فظلّتا تتمعّنان فيه لوقتٍ طويل.

يمكن أيضاً أن يكون هذا النّبات هو «دكتور بلسمان». قالت الجدّة (لكنْ في الحقيقة كان هو «السيّدة جون تي تشيبرس»).

كافأ الرّبيعُ جهْد الأب بقدْرٍ كبيرٍ من الُّلطف؛ فقد بدأ كلّ شيءٍ ينمو، فيما عدا شجرة الحَور، فتضخّمت البراعم، وتفجّرت في أوراقٍ مجعّدةٍ

لامعةٍ انتشرت بسرعةٍ وكبرت، وحْدها شجرةُ الحَور وقفت عاريةً بين حبالها، وكانت تماماً مثلما كانت عليه عند وصولها، واستمرّ الطّقس جميلاً حتّى حزيران/ يونيو، ولم تُمطر.

كان هناك نظامٌ من الخراطيم البلاستيكيّة عبْر الجزيرة كلّها، وكانت هذه الخراطيم شبه غارقةٍ في مستنقع الطّحلب، رُبطت ببعضها بأسنانٍ لولبيّةٍ نحاسيّة؛ حيث تجتمع كلّها في مضخّةٍ صغيرةٍ موضوعةٍ تحت صندوقٍ عند الحوض الأكبر لمياه الأمطار في الجزيرة، وفوق الحوض وُضع غطاءٌ بلاستيكيٌّ لمنع تبخُّر الماء، فقد جرى التّفكير بكلّ شيءٍ بذكاء. كان الأب يشغّل المضخّة مرّتين في الأسبوع، فيجري الماء الدافئ البُنّيّ عبْر الأنابيب وموزّع المياه، ويندفع خارجاً على الأرض من رشّاشٍ جميلٍ بشعاعٍ مستقيم، وكلّ شيءٍ تبْعاً لنوع النّبات وحاجته: فبعضها يُسقى لدقيقةٍ واحدةٍ، وبعضها الآخر لثلاث، أو خمس دقائق إلى أنْ تدقّ ساعة الأب المنبّهة، فيُغلق الماء الثّمين. بطبيعة الحال، لم يكن يستطيع إعطاء ماءٍ لبقيّة الجزيرة، فاصفرّت الجزيرة ببطءٍ، وجفّت التّربة النّامية في المنخفضات بين الصّخور الجبليّة، وانقلبت حوافّها مثل شريحة سجقٍ قديمةٍ، وتيبّس الكثير من أشجار الصّنوبر. كان الطقس بنفس القدْر من الجمال في كلّ صباح. وفي المناطق السّاحليّة ظلّت العواصف الرعديّة تتبع إحداها الأُخرى ذهاباً وإياباً مع هطول أمطارٍ، لكنّها لم تصل مرّةً إلى البحر، فانخفظ الماء في الحوض. دَعت صوفيا أنْ تُمطر، لكنّ شيئاً لم يحدث، وذات مساءٍ، بينما كان الأب يسقي، أصدرت المضخّة صوتَ غرغرةٍ بائساً، وارتخى الخرطوم، وفرغ الحوض تماماً، والتصق الغطاء البلاستيكيّ بالقاع في ملايينٍ من الطيّات المجعّدة.

تمشّى الأب طوال نهارٍ كاملٍ، وهو يفكّر، فقام ببعض الحسابات والتخطيطات، وركب القارب إلى المتْجر؛ ليستعمل الهاتف، فحلّت

موجة حَرٍّ شديدةٌ على الجزيرة التي أُنهكت أكثر فأكثر مع مرور الأيّام، وتوجّه الأب إلى المتْجر لإجراء اتّصالٍ مرّةً أُخرى، وفي النهاية، استقلّ الحافلة إلى المدينة، وفهمت صوفيا والجدّة أنّ الموقف بات كارثيّاً.

عندما عاد الأب كانت معه شريحة سجقٍ بلاستيكيّة كبيرة الحجم، وكان للسّجق لون البرتقال القديم، وقد ملأ نصف القارب بطيّاته الثّقيلة، وقد صُنِع بمواصفاتٍ خاصّة، ومن الواضح أنّه لم يكن لديهم وقتٌ ليضيّعوه؛ فحملوا المضخّة والخراطيم إلى القارب وانطلقوا.

صار البحر صقيلاً وخاملاً وسْط ضبابٍ من الحرارة، وقد انتصب عبْر السّاحل الجدارُ المعتادُ من السُّحب الخادعة، وبالكاد ارتفعت النّوارس في طيرانها، وكانت رحلةً مهمّةً للغاية، وعندما وصلوا إلى «جُزَيرة المستنقع الصّخريّة» كانت حرارة القارب مرتفعةً إلى درجة أنّ القطران كان يسيل، والسّجق البلاستيكيّ تفوح منه رائحةٌ كريهةٌ، فحمل الأب المضخّة إلى المستنقع، وكان مستنقعاً كبيراً وعميقاً ينمو فيه البرديّ والعشب القطنيّ، فربط الخراطيم ببعضها، وألقى السّجق البلاستيكيّ في ماء الشّاطئ، وشغّل محرّك المضخّة، فامتلأ الخرطوم وعدّل مساره عبْر الجبل، وببطءٍ شديدٍ أخذ السّجق الكبير يزداد حجماً، ومضى كلّ شيءٍ وفقاً للحسابات والآمال، لكنْ لم يجرؤ أحد على أن يتحدّى القدر ويتكلّم، وقد تضخّمت شريحة السّجق حتّى أصبحت بالوناً هائلاً لامعاً، غيمةً مطريّةً، برتقاليّة اللّون، متكاملةً، تحمل في بطنها آلاف اللّيترات من المياه.

- «لا تدعها تنفجر يا إلهي!». دعت صوفيا.

لم تنفجر، فأغلق الأب المضخّة، وحملها نزولاً إلى القارب، وحمل إليه الخراطيم أيضاً، وربط قطعة السّجق البلاستيكيّة بحبال مؤخّرة القارب، وجلست الأُسْرة على اللّوحة الوسطيّة في القارب، وأخيراً، شغّل

المحرّك، الذي بدأ بالسّحب، وتوتّرت الحبال، لكنّ السّجق لم يتحرّك، فنزل الأب إلى أرض الشّاطئ، وحاول الدفع، لكنْ لم يحدث شيء.

- «يا إلهي، الذي يحبّ الأطفال». همست صوفيا: «اِجعلها تنفكّ!».

حاول الأب مرّةً أُخرى، ولم يحدث شيء، فتأهّب، ثمّ ركض، وألقى بنفسه على قطعة السّجق، وانزلقا معاً متحرّكين عبْر العشب البحريّ الزّلق، وهبطا إلى الماء بحركةٍ بطيئةٍ وانسيابيّةٍ، وبدأت صوفيا تصرخ.

- «لا تلومي الربّ الآن». قالت الجدّة، التي كانت مهتمّةً بالعمليّة كلّها.

نزل والد صوفيا إلى القارب، وشغّل المحرّك بحركةٍ سريعةٍ، فانطلق المحرّك بنشاطٍ، وانتقلت صوفيا وجدّتها إلى أرض القارب في وقتٍ واحدٍ تماماً، وغطست قطعة السّجق الكبيرة ببطءٍ في البحر مع الحبال المشدودة، وظلّ الأب في المؤخّرة ليراقبها، فزحفتْ عبْر الطّحلب، وحين نزلت إلى مستوى أعمق اختفت تماماً، ونزل المحرّك في الماء، وبدأ يُخرخر، فانتقلت الأُسْرة إلى الأمام، وكان هناك بالكاد عشرة سنتيمتراتٍ بين الحفّة العُلويّة للقارب والماء.

- «لن أطلب منه شيئاً مرّةً أُخرى». قالت صوفيا.

- «هو يعلم على كلّ حال». قالت الجدّة، وقد استلقت على ظهرها، وفكّرت بأنّ الربّ يساعد بلا شكّ، ولكنْ فقط عندما يبذل الإنسان جهده.

أبحر السّجق البلاستيكيّ ببطءٍ إلى الأمام في ذلك العمق الذي جعله ظِلّ القعر يبدو أخضر؛ إنّها فقاعةٌ كبيرةٌ من الماء الحيّ، ويعلم الجميع أنّ ماء المطر أخفّ من الماء المالح، لكنْ في هذه الحالة كان المحرّك قد سحب إليه كميّةً كبيرةً من الوحل والرّمل، وكانت الحرارة مرتفعةً في القارب، ورائحة البنزين تفوح، والمحرّك يهْدر بجنونٍ، فغفت الجدّة، وما

يزال البحر لامعاً، وتراكمت مصاطب الغيم فوق السّاحل، وكان السّجق البلاستيكيّ يتحرّك ببطءٍ فوق القاع، ويسقط على الجانب الآخر، وانطلق المحرّك مندفعاً، ثمّ اهتزّ ثانيةً، وسحب القارب الماء بسلاسةٍ عبْر مؤخّرته، وعاود المضيّ مرّةً أُخرى، لكنْ ببطءٍ شديدٍ، فبدأت الجدّة بالشّخير، وفي هذه الأثناء تتابعت ضرباتُ رعدٍ شديدةٌ وجافّةٌ بين الجُزر، وانتشرت ريحٌ سوداء فوق المياه، واختفت بالسرعة نفسها، وعندما استداروا صوب الّلسان الصّخريّ جاءت ضربة الرّعد الثّانية، وفي الوقت نفسه انزلق السّجق البلاستيكيّ فوق الشّعب المرجانيّة، فاستيقظت الجدّة، ورأت موجةً قصيرةً لامعةً تأتي فوق عارضة مؤخّرة القارب، وانتبهت إلى أنّها مبلّلة، ولم يعُد الجوّ ساخناً، وكانت مجموعةٌ مختلطةٌ من الغيوم تطير عبْر السّماء، بينما كان الماء في القارب دافئاً ومريحاً. أظْلم المشهد مع قاعٍ مضيءٍ أصفر، وفاحت في الجوّ رائحة المطر، فدخلوا ببطءٍ صَوب الجزيرة، بينما كان الجوّ العاصف يسحب ظلّه العميق فوق البحر، وجلس الثّلاثة صامتين يخيّم عليهم شعورٌ بالقلق الذي لم تكن فيه حينئذٍ أيّة إثارة. المكان هنا أكثر ضحالةً، وكلّما اقترب السّجق البلاستيكيّ من القاع ارتفع مستوى الماء في القارب، وفي النّهاية، تسرّب الماء بكلّ هدوءٍ فوق الإطار العُلويّ للقارب، وفي الوقت نفسه انطلقت عاصفة الرّعد.

فكّ الأب المحرّك الذي كان يُهسهس، وخاض في الشّاطئ تتبعه صوفيا حاملةً الخرطوم، وبحَذرٍ شديدٍ قلبت الجدّة نفسها على حافّة القارب، خارجةً منه لتخوض في الماء، وكانت تسبح قليلاً لكي تتذكّر الإحساس بالسّباحة، ثمّ جلست على الصّخرة، وأفرغت حذاءها من الماء، وكان الخليج بأكمله ممتلئاً بأمواجٍ صغيرةٍ غاضبةٍ، بينما السّجق البلاستيكيّ يجنح إلى الشّاطئ متوهّجاً بضوء الشّمس مثل برتقالةٍ خارجةٍ من الجنّة، فسحبه الأب إليه، فصار السّجق يرفع بطنه البرتقاليّة بينما سُرّته النحاسيّة

موجّهة نحو السّماء، ووُصِلت الخراطيم، واشتغلت المضخّة، فطارت كتلةٌ كبيرةٌ من الطّين والرّمل في الهواء، وبعد ذلك اندفع رشّاشٌ من الماء على الصّخرة جعل الطّحلب يطير كالدّخان. «ماء، ماء!». صرخت صوفيا بشيءٍ من الهستيريا، وهي مبلّلةٌ تماماً، واحتضنت الخرطوم النّابض، وهي تحسّ به يضخّ الماء إلى الظيان، والظيان الزغبيّ، وبوقيّة، وزهيرات شريطيّة، ومدام دروتسشكي، وشجر الورد، ولفرسيثيا، والنباتات كلّها التي تعلّمت أسماءها من كاتالوج الزّهور، وشاهدت ذلك التيّار القويّ من قوس الماء يدخل عبْر الجزيرة، وهبوطاً نحو الحوض الجافّ. «ماء!». صاحت صوفيا، وركضت إلى شجرة الحَور، ورأت ما كانت تنتظر رؤيته؛ بُرعمُ جذرٍ أخضر، وفي الّلحظة نفسها جاء المطر دافئاً وعنيفاً، فصارت الجزيرة مباركةً مرّتين معاً.

اعتادت الجدّة التّوفير طوال حياتها؛ ولهذا كانت ضعيفةً أمام الإسراف، ورأت المستنقع، والحاويات، والممرّات كلّها ما بين الجبال الصخريّة، وهي تمتلئ ويفيض الماء من حوافّها، وتأمّلت في الفُرُش التي كانت في الخارج لتتهوّى، وفي الأواني التي غسلت نفسها بنفسها، فتنهّدت بالسّعادة، وتناولت -وهي غارقةٌ في الأفكار- إبريقَ القهوة، وملأت منه فنجاناً من ماء الشُّرب الثّمين، وسكبته فوق زهرة أُقحوان.





قارب المُجرمين

في ليلةٍ دافئةٍ وساكنة الرّيح من ليالي آب/ أغسطس، سُمع صوت بوقٍ آتياً من البحر، وكان يشبه النّفخ في الصوْر يوم القيامة. صفّان مزدوجان من الضّوء انزلقا إلى الجزيرة في حركةٍ قوسيّةٍ بطيئةٍ؛ كان يختاً ضخماً يُخرخر كما لا تفعل سوى القوارب الثّمينة جدّاً والسّريعة، وله مصابيح بالألوان جميعها: من الأزرق الغامق، والأحمر الدمويّ، إلى الأبيض. حبس البحر بأكمله أنفاسه، ووقفت صوفيا وجدّتها على أرض الجبل بقمصان النّوم تراقبان، فانزلق القارب الغريب إلى مسافةٍ أقرب وأقرب مع إطفاء المحرّك، وكانت أضواء مصابيحه على الأمواج المضطّربة تتراقص كثعابين من نار، ثمّ اختفى تحت الجبل. ارتدى والد صوفيا سرواله، وركض هابطاً لكي

يستقبلهم، ومرّ وقتٌ طويلٌ من الصّمت التّام، وبعد ذلك سُمعت موسيقا ضعيفةٌ من جهة الميناء.

- «لديهم حفلة». همست صوفيا: «فلْنذهب نحن أيضاً إلى هناك، سنرتدي ثيابنا، ونذهب إلى هناك على الفور».

لكنّ الجدّة قالت: «انتطري قليلاً، انتظري حتّى يعود».

رقدتا في سريريهما، وهُما تنتظران، وغفَتا بعد وقتٍ قليلٍ، وفي الصّباح التالي لم يكن القارب هناك؛ لقد غادر.

ألقت صوفيا نفسها على أرض الجبل باكيةً. «كان بمقدوره المجيء لأخذنا!». صاحت: «تركنا ننام بينما كان يحتفل، لن أغفر له أبداً!».

- «لقد تصرّف على نحوٍ سيّءٍ للغاية». قالت الجدّة بصرامة: «وهذا ما سأقوله له عندما يستقيظ».

عادت صورة القارب الممتلئ بالأسرار إلى صوفيا على نحوٍ طاغٍ، وراحت تصرخ من الحزن.

- «اِمسحي أنفك». قالت جدّتها: «كانت خيبة أملٍ كبيرة! لكنْ امسحي أنفك على أيّة حال؛ يبدو شكلك فظيعاً». وانتظرت قليلاً وعادت تقول: «أعتقد أنّهم كانوا أناساً مزعجين، لقد ورثوا ذلك القارب ليس إلّا، ولم يفهموا يوماً شيئاً عن القوارب، لكن..». أضافت بنبرة انتقاميّة: «لقد صنعوا ديكور القارب بأنفسهم، وكانت ألوانه بشعة».

- «هل تعتقدين ذلك؟». تنهّدت صوفيا، وهي تجلس.

- «»ألوان بشعة». أكّدت جدّتها: «لديهم نوافذُ حريريّةٌ لامعةٌ بألوانٍ بنّيّةٍ، وصفراء، وبيجيّة أرجوانيّة، ومصابيحُ واقفةٌ، وأطباقٌ خزفيّةٌ، ولوحاتٌ متوهّجةٌ، وفيها دعابةٌ أيضاً...».

- «أجل، أجل». قالت صوفيا بصبر نافد: «وماذا بعد؟».

– لو لم يكونوا ورثوا القارب فقد سرقوه.

– وممّن يا ترى؟

– «من مهرّبٍ مسكين. وسرقوا كذلك مهرَّباته كلّها، كلّ شيءٍ على الإطلاق، بينما هُم يشربون العصير؛ لقد سرقوه من أجل المال فقط». زادت الجدّة حماسة الموضوع: «وغادروا من دون خريطةٍ بحريّةٍ، ولا مجاذيف!».

– لكنْ لماذا جاؤوا إلينا؟

– لكي يُخبّئوا كلّ شيءٍ في الممرّ الصخريّ، ويأخذوه فيما بعد.

– هل تصدّقين ذلك؟

– «جزئياً». قالت الجدّة بحَذر.

صعدت صوفيا، ونظّفت أنفها. «الآن». قالت: «الآن سأخبركِ كيف جرت الأمور، اِجلسي وأصغي إلى ما أقوله: عندما جاء أبي إلى هنا، أرادوا منه أن يشتري قنّينة شرابٍ نسبة الكحول فيه ستٌّ وتسعون في المئة، وكانت باهظة الثّمن، الآن، أنتِ أبي، فقولي ماذا قال».

– قال بكلّ فخرٍ: «إنّ شراء زجاجة الستّة والتّسعين في المئة هو أقلّ من قدْري؛ فبمقدوري أنْ أجد مثل هذه الزّجاجة بنفسي إنْ كانت لي رغبة، وأنقذها من البحر مخاطراً بحياتي. ها يا سيّدي، وبالمناسبة، أُسْرتي تعتقد أنّ طعم هذا الشّراب رديء». والآن دوركِ.

– آه حقّاً؟ لديكم أُسْرة يا سيّدي؟ وأين هي هذه الأُسْرة؟

– ليسوا في القرب من هنا.

صاحت صوفيا: «ولكنّنا هنا طوال الوقت! لماذا لم يقل: إنّنا هنا؟!».

– لكي يحمينا.

- لماذا؟ لماذا تجب حمايتنا عندما يحدث أيّ شيء؟ أنتِ تخدعينني؛ لا حاجة إلى إنقاذنا، فهُم لا يفعلون شيئاً سوى العزف والرقص.

- «لقد شغّلوا المذياع». قالت الجدّة: «المذياع فقط؛ كانوا ينتظرون سماع حالة الطّقس والأخبار، لكي يعرفوا إذا كانت الشّرطة في إثرهم».

- «أنتِ تخدعينني! ليس ثمّة أيّة أخبارٍ عند السّاعة الواحدة ليلاً؛ كانوا يحتفلون ويستمتعون، ولم نكن معهم».

- «كما تشائين». قالت الجدّة غاضبةً: «كانوا يحتفلون ويستمتعون، لكنّنا لا نحتفل مع أيٍّ كان».

- «أنا أفعل». قالت صوفيا: «أنا أحتفل مع أيٍّ كان وأرقص؛ هكذا نفعل أبي وأنا!».

- «تفضّلي إذنْ». أجابت الجدّة، ومشت على امتداد الشّاطئ: «احتفلي مع الأشرار كما تشائين، طالما أنّ ساقَيك تحملانك، فلا شيء آخر يهمّ».

كان القارب قد ألقى نفاياته في الماء، نفايات ثمينة تُظهر -تماماً- ما كانوا يفعلونه، ومعظمها علق على الصّخرة الجبليّة.

- «برتقال، وحلوى، وسلطعون!». قالت صوفيا بتوكيد.

- «المجرمون يشتهرون بأكل السّلطعون». قالت الجدّة: «ألم تعلمي بهذا؟». كانت متعبةً من كلّ شيءٍ، ولديها إحساسٌ بأنّها كان يمكن أن تستعمل هذه المحادثة لفائدةٍ تربويّةٍ أكثر من ذلك، فأردفت: «وبالمناسبة، ما الذي يمنع المجرم من أن يأكل السّلطعون؟».

- «أنتِ تتكلّمين عن أشياء خاطئة». أوضحت صوفيا: «الآن فكّري، أنا أتكلّم عن أنّ أبي أكل السّلطعون مع المجرمين، وبعد ذلك نسينا؛ هكذا بدأ الأمر برُمّته».

- «أجل، أجل، أجل». قالت الجدّة: «اختلقي أنتِ إذا لم تصدّقي قصّتي».

اصطدمت زجاجةٌ فارغةٌ من ماركة «المهرّبون القدماء» بصخرةٍ اصطداماً هيّناً. من الممكن أنّه لم ينسها، إنّما شعر أنّه من المناسب أن يكون وحْده، وفي الحقيقة إنّ تصرّفه مفهوم.

- «الآن بتُّ أعرف». اندفعت صوفيا: «لقد أعطوه عقاراً منوّماً، تماماً عندما هَمّ بالمجيء إلينا، أُعطيَ كميّةً كبيرةً من العقار المنوّم في كأسه؛ ولهذا السبب ينام وقتاً طويلاً!».

- «عقار نمبوتال». اقترحت الجدّة التي ترغب في النّوم. حدّقت صوفيا فيها بعينين مفتوحتين على اتّساعهما: «لا تقولي هذا!». صرخت: «تخيّلي لو أنّه لنْ يستيقظ أبداً!». استدارت وبدأت تركض، وكانت تقفز، وتركض، وتبكي بصوتٍ عالٍ من الرّعب، وفي تلك اللّحظة تماماً، في ذلك المكان بالتحديد؛ في المستنقع، كانت علبة الشوكولاته البهيّة مطروحةً، تستند إلى صخرة، علبةٌ ضخمةٌ من الورق المقوّى الورديّ والأخضر مزيّنةٌ بشريطٍ فضّيٍّ، والألوان الفاقعة جعلت المشهد يبدو أكثر رماديّةً من أيّ يومٍ مضى، ولم يكن هناك أيّ شكٍّ في أنّ هذه العلبة الرائعة هي هديّة، وفي عُقدة الشّريط كانت هناك رسالةٌ صغيرةٌ، فوضعت الجدّة على عينيها النظّارات الطبيّة وقرأت: «تحيّة حارّة إلى الذين منعهم كبر، أو صغر سنّهم من مشاركتنا». «يا للسماجة!». غمغمت الجدّة من بين أسنانها.

- «ماذا كتب فيها؟». صاحت صوفيا.

- «يقولون التالي». قالت جدّتها: «يقولون: لقد تصرّفنا على نحوٍ سيّئٍ للغاية، وكلّ شيءٍ هو خطأنا، فسامحونا إن كان في استطاعتكم».

- «هل نستطيع ذلك؟». سألت صوفيا.

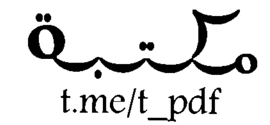
- «كلّا». قالت الجدّة.

- بلى، ينبغي أنْ نسامحهم؛ المجرمون بالذّات هُم من ينبغي دائماً مسامحتهم. تخيّلي كم كانوا مجرمين لطيفين على أيّ حال! هل تظنّين أنّ الشّوكولاته مسمومة؟

- «كلّا، لا أظنّ، وذلك العقار المنوّم كان بلا شكّ ضعيفاً نوعاً ما.

- «مسكينٌ أبي». تنهّدت صوفيا: «بالكاد نجى».

- هكذا كان الأمر؛ لازَمه صداعٌ لغاية المساء، ولم يستطع أنْ يأكل، ولا أن يعمل.



الزّيارة

أفرغ والد صوفيا التفل من غلّاية القهوة، وحمل أُصص الزّهور إلى الشّرفة.

- «لماذا يفعل هذا؟». سألت الجدّة. وقالت صوفيا: «إنّ الزّهور تشعر بتحسُّنٍ في الهواء الطلْق عند غيابه».

- «أين سيغيب؟». قالت الجدّة.

- «سيغيب أسبوعاً كاملاً». أجابت صوفيا: «سنُقيم عند بعض النّاس في إحدى الجُزر الداخليّة إلى أنْ يعود».

- «لم أكن أعلم». قالت الجدّة: «لم يُخبرني أحد». وذهبت إلى غرفة الضّيوف، وحاولت أنْ تقرأ، ومن الطّبيعيّ أن يُنقل أصيص الزّهر إلى المكان الأنْسب له، سيمكنه العيش أسبوعاً في الشُّرفة، لكن إذا غاب عنه المرء فترةً أطول، فيجب أن يوضع عند شخصٍ يستطيع أن يسقيه، هذا محزنٌ جدّاً؛ حتّى نباتات الأُصص تصبح مسؤوليّةً، مثل كلّ شيءٍ تعتني به، ولا يستطيع أن يقرّر شؤونه بنفسه.

- «تعالي لتأكلي». صاحت صوفيا من وراء الباب.

- «لست جائعة». قالت الجدّة.

- هل تشعرين بالغثيان؟

- «لا». قالت الجدّة.

إنّها تعصف وتعصف، إنّها تعصف دائماً في هذه الجزيرة، مرّةً تعصف من هنا، ومرّةً من هناك. هذه الجزيرة محميّةٌ طبيعيّةٌ لشخصٍ يعمل، وحديقةٌ برّيّةٌ لشخصٍ يكبر؛ أمّا غير ذلك، فهي -فقط- أيّام تُضاف إلى أيّامٍ، ووقتٌ يمرّ.

- «هل أنتِ غاضبة؟». سألت صوفيا، لكنّ جدّتها لم تُجب. مرّت أُسرة أوفركودس مع البريد، وعلِم الأب أنّه لا حاجة له للذّهاب إلى المدينة. «جيّد جدّاً». قالت صوفيا، لكنّ الجدّة لم تقُل شيئاً، وصارت أكثر صمتاً، ولم تعد تصنع لُعَب قوارب من لحاء الشّجر، وعندما كانت تغسل الأواني، أو تنظّف السّمك، بدا كأنّها ليست مستمتعةً، وفي الصّباحات الجميلة لم تمشّط شَعرها في المَحْطبة ببطءٍ، ووجهها نحو الشّمس، كما اعتادت أنْ تفعل؛ كانت تقرأ فقط من دون اهتمام.

- «هل تستطيعين أن تصنعي طائرةً ورقيّةً على شكل تنانين؟». سألت صوفيا، لكنّ الجدّة قالت: إنّها لا تستطيع، وبينما الأيّام تجري أصبحتا كغريبتين عن بعضهما، خجلٌ تحوّل إلى عدائيّة.

- «هل صحيح أنّكِ مولودةٌ في القرن التّاسع عشر؟». صاحت صوفيا عبْر النّافذة بشيءٍ من الوقاحة.

- «عام ألفٍ وثمانمئة واثنين وتسعين». أجابت الجدّة بدقّةٍ عالية: «إنْ كان هذا يعني لك شيئاً».

- «كلّا!». هتفت صوفيا، وركضت مغادرة.

باركَ الجزيرة مطرٌ ليليٌّ خفيفٌ، وطاف فوق المياه كثيرٌ من ألواح التسقيف، وجرى إنقاذها، ولم يأتِ أيّ أحدٍ للزّيارة، ولم يأتِ أيّ بريد،

وتفتّحت زهرة أوركيد، وكلّ شيءٍ كان حسناً، ولكنّه مع ذلك مظلّلٌ بسوداويّةٍ عميقة. إنّه شهر آب/ أغسطس، بطقسه الصّارخ والجميل، لكنْ مهما يحدث، فهو بالنسبة إلى الجدّة ليس إلّا وقت يمضي بعد وقت، حيث كلّ شيء ليس سوى عبثٍ ومطاردةٍ للرّيح، والأب يعمل على طاولته وحسب.

ذات مساءٍ، كتبت صوفيا رسالةً، وأدخلتها من تحت الباب، كان مكتوباً فيها: «أكرهك! تحيّات حارّة من صوفيا».

كانت الرّسالة سليمة التّهجئة تماماً.

صنعت صوفيا التنّين، ووجدت الصّورة الأصليّة في مجلّةٍ عثرت عليها في العلّيّة، لكنْ على الرغم من أنّها صنعت مثل ما هو موجودٌ في الصّورة الأصليّة تماماً، إلّا أنّ الطّائرة لم تكن جيّدةً؛ فالأعواد لم تثبّت مع بعضها، وتمزّق ورقُ الزّينة، وسال صمغٌ في أماكنَ خاطئة، وعندما أنْهته، رفض التنّين الطّيران، وسقط على الأرض مرّةً بعد أُخرى، كأنّه يريد تدمير نفسه، وفي النّهاية، رمى نفسه في الحوض، فوضعته صوفيا خارج غرفة جدّتها ومضت.

«يا لها من طفلةٍ صغيرةٍ ذكيّة!». فكّرت الجدّة: «تنّين، إنّه رمزٌ ممتازٌ حقّاً، وهي تعرف أنّني عاجلاً أم آجلاً سوف أصنع تنّيناً يطير، ولكنّ هذا لا يساعد. لا يهمّ على الإطلاق».

في نهارٍ هادئٍ ظهر قاربٌ صغيرٌ أبيضُ بمحرّكٍ خارجيٍّ يقترب من الجزيرة.

- «إنّه فيرنر». قالت الجدّة: «إنّه هنا ثانيةً مع زجاجة الشيري». وفكّرت قليلاً بأنّها تشعر أنّ صحّتها ليست على ما يرام، لكنّها ندمت ونزلت من الصّخرة.

كان فيرنر يضع قبّعة الكتّان على رأسه، ويرتدي ملابس رياضيّة، وكان واضحاً أنّ القارب من قوارب الجُزر الداخليّة، لكن اعتُنيَ به ليبدو أنيقاً، فقد صُمّم له الشّكل الشّبيه بتسريحة فرينش تويست. رفض كلّ مساعدةٍ، وجاء نحوها بذراعين ممدودتين: «صديقتي القديمة العزيزة، أما زلتِ على قيد الحياة؟!».

- «كما ترى». أجابت الجدّة بجفافٍ، وعانقته، وشكرته على الزّجاجة، فقال: «ها أنتِ ترين أنّني أذكر، إنّها العلامة التجاريّة نفسها كما في العقد الأوّل من القرن».

«يا للحماقة!». فكّرت هي: «لماذا لم أجرؤ قطّ على القول: إنّ شراب الشيري هو أسوأ ما تذوّقت؟ تأخّر قول ذلك». مؤسفٌ حقّاً، بالنظر إلى أنّها أخيراً وصلت إلى السنّ التي يمكن للمرء فيها وبهدوءٍ أن يكون صادقاً في التّعبير عن رأيه في الأشياء الصّغيرة.

أخذوا بعض أسماك الفرخ من البُحيرة، وأكلوا في وقتٍ أبكر من المعتاد. «في صحّتك». قال فيرنر بجديّةٍ ملتفتاً إلى الجدّة: «من اللّطيف للغاية أنْ نعيش المشهد الأخير من شيخوختنا وسْط صيفٍ يتلاشى، والسّكون يخيّم من حولنا، وكلٌّ يمضي في طريقه، إلّا أنّنا جميعاً نلتقي أمام البحر في غسقٍ هادئ».

أخذوا رشفاتٍ صغيرةً من الشيري. قالت الجدّة: «أفترض ذلك، ولو أنّهم قالوا: إنّ رياحاً ستهبّ هذا المساء. كم حصاناً قوّة محرّك قاربك؟».

- «ثلاثة». خمّنت صوفيا.

- «أربعة ونصف». قال فيرنر باختصار، وتناول قطعة جُبنٍ، ونظر إلى الخارج عبْر النّافذة.

أدركت الجدّة أنّه قد جُرح، وحاولت أنْ تبدو ألطف ما يمكن إلى أن

حلّ وقت القهوة، ثمّ اقترحت أن يتمشّوا معاً، فأخذوا السُّلّم المتنقّل إلى حقل البطاطا، وتذكّرت أن تستند إلى ذراعه في كلّ مرّةٍ تكون فيها الأرض وعْرةً، وكان الجوّ شديد الدفء والهدوء.

- «كيف حال ساقيك؟». سأل فيرنر.

- «سيّئة». ردّت الجدّة بودٍّ: «لكنْ في بعض الأيّام تتحسّنان بحيث يمكن المشي بهما». بعد ذلك سألته عمّا يفعله حاليّاً.

- «قليل من كلّ شيء». كان ما يزال مستاءً، وفجأةً انفجر: «وبيكماسون الذي رحل!».

- وأين هو؟

- «لم يعد بيننا». أوضح فيرنر بغضب.

- «هكذا، هل مات؟». وبدأت تفكّر بالعبارات الملطّفة كلّها لذكر الموت، ومحرّماته المثيرة للهلع، التي لَطالما أثارت اهتمامها. إنّه ضررٌ كبيرٌ ألّا يُتاح للمرء أبداً سوق محادثةٍ عقلانيّةٍ حول هذا الموضوع مع من حوله، فقد كانوا إمّا أصغر، وإمّا أكبر من خوض هذا الحديث معهم، أو لم يكن لديهم وقت لذلك.

تحدّث عن شخصٍ راحلٍ آخر، وعن أنّ المساعد في المتْجر شخصٌ غير لطيفٍ، وعن المنازل القبيحة التي تُبنى في كلّ مكانٍ، والنّاس الذين ينزلون إلى شواطئ الغير من دون استئذانٍ، ولكنّ التطوّر يمضي في طريقه بالطبع.

- «هذا كلّه هراءٌ مملّ». قالت الجدّة، وتوقّفت وواجهتْهُ: «لمجرّد أنّ الكثير والكثير من النّاس يفعلون الأشياء السّخيفة نفسها، فهذا ليس شيئاً نثير الضجّة بسببه، التطوّر شيءٌ آخر تماماً، وأنت تعرف هذا؛ إنّه التّغييرات، التّغييرات الكبيرة».

- «صديقتي العزيزة». قال فيرنر بسرعة: «الآن أعرف ما الذي ستقولينه، عذراً على المقاطعة، لكنّكِ في طريقك إلى أن تسأليني إنْ كنت لا أقرأ الصّحف أبداً».

- «كلّا، على الإطلاق!». هتفت الجدّة متأثّرةً بشدّة: «أسألك فقط: ألم يكن لديكِ فضولٌ بالمرّة؟ كأن تكون ساخطاً، أو حتّى مرعوباً؟».

- «لا، في الحقيقة لا». أجاب فيرنر بصدق: «ربّما كنت ساخطاً بما يكفي وأكثر». كانت عيناه مهمومتين، فقال: «أنت صعبة الإرضاء جدّاً. لماذا تستعملين كلماتٍ حادّة؟ أنا فقط أخبرك بما يحدث».

مرّوا في سَيرهم بحقل البطاطس، ونزلوا إلى مرْج الشّاطئ. «هذا حَورٌ حقيقيّ». قالت الجدّة محاولةً تغيير الموضوع.

- أُنظر، لقد تجذّر؛ صديق لنا حمل لنا ذَرَق وَزٍّ أصليّاً من إقليم لابلاند، وقد ارتاح الحَور لهذا السّماد.

- «تجذّر». ردّد فيرنر، وظلّ صامتاً لمدّةٍ، وواصل قائلاً: «لا بدّ من أنّه أمرٌ مريحٌ لكِ أنْ تعيشي مع حفيدتك».

- «توقّف عن هذا!». قالت الجدّة: «توقّف عن الحديث بالرّموز؛ إنّه أسلوبٌ عتيق. أتكلّم عن التجذُّر، وأنت تُدخل -على الفور- موضوع الحفيدة. لماذا يجب أن تكثر من إعادة صوغ الكلام، ومن التّشبيهات، هل أنت خائف؟».

- «صديقتي القديمة العزيزة». قال فيرنر محزوناً.

- «متأسّفة!». قالت الجدّة: «هذا كلّه نوعٌ من المجاملة، أنا أحاول أن أوضح أنّني آخذك على مَحمل الجدّ».

- «أنتِ تجهدين نفسكِ في ذلك، وهذا واضح». أكّد فيرنر بلهجةٍ معتدلة: «عليكِ أنْ تكوني حذرةً في إطراءاتك».

- «معك حقّ في هذا». قالت الجدّة.

واصلا السَّير حَول اللّسان الصّخريّ بصمتٍ مسالمٍ، وفي النّهاية قال: «في السابق لم تكوني تتحدّثين قطّ عن قوّة المحرّكات والسّماد».

- لم أكن أعرف أنّ هذه الأشياء يمكن أن تكون شائقة؛ الأشياء الشّائعة يمكن أن تكون رائعة.

- لكنْ عنكِ، عن أموركِ الخاصّة، أنتِ لا تتكلّمين عنها أبداً.

- «ربّما ليس فيما يتعلّق بالشّؤون الأهمّ». وتوقّفت الجدّة لتفكّر: «أقلّ ممّا اعتدتُ عليه سابقاً على أيّ حال، وأفترض أنّني قلت معظم الأشياء الآن، ولَحظت أنّ الأمر لم يكن يستحقّ، أو أنّني ليس لي الحقّ بقولها».

لزم فيرنر الصّمت.

- «هل معك أعواد ثقاب؟». سألت، فأشعل لها لفافة تبغها، وعادا إلى الكوخ. حتّى الآن لم تبدأ العاصفة.

- «هذا ليس قاربي». قال.

- بإمكاني أن أستنتج هذا؛ فيه تشكيل فرينش تويست أيضاً. هل استعرته؟

- «أخذته وحسب». أجاب فيرنر: «أخذته وغادرت به. مزعجٌ جدّاً قلقهم الدّائم».

- «لكنّك بالكاد تبلغ خمسة وسبعين عاماً!». قالت الجدّة مندهشةً: «يمكنك بالتأكيد أن تفعل ما تشاء».

أجاب فيرنر: «هذا ليس سهلاً، عليكَ أن تراعي، وهُم عليهم مسؤوليّة تُجاهك على كلّ حال، وحين تُحقّق هذه المعادلة فأنت غالباً في الطّريق الصّحيح».

توقّفت الجدّة، ونخزت بعصاها قطعةً من الطُّحلب، فأنزلته إلى وضعيّته الصّحيحة، وواصلت السَّير.

- «أحياناً أكتئب بشدّة». قال فيرنر: «أنتِ قلتِ: إنّه على المرء ألّا يتحدّث عن الأشياء المهمّة لشخصٍ، وها أنا أفعل هذا على كلّ حال. يبدو أنّني هذا اليوم لا أقول سوى الأشياء الخاطئة».

كان البحر كلّه مصطبغاً بصُفرة المساء، وهادئاً كليّاً. «هل تسمحين لي بالتّدخين؟». سأل.

أجابت: «بكلّ سرورٍ يا صديقي العزيز».

أشعل فيرنر سيجاراً صغيراً، وقال: «إنّهم يتكلّمون كثيراً عن الهوايات، كما تعرفين، الهوايات».

- «أجل». قالت الجدّة: «أن تكون للمرء رغبةٌ في شيء».

«أن تجمع أشياء». واصل فيرنر: «إنّه غباء. بودّي أن أفعل أشياء، بيدَيَّ بالطبع، ولكنّني غير عمليٍّ بعض الشّيء».

- ولكنّك تستطيع بالتّأكيد أن تزرع.

- «حقاً!». هتف بيرنر: «أنتِ مثلهم، تماماً مثلهم، يقولون لي: اِزرع وانظر كيف ينمو هذا الزّرع! كان بوسعي أن أتوصّل إلى هذه الفكرة بنفسي لو أنّهم لم يقولوا شيئاً».

- «في هذا معك الحقّ كلّه». قالت الجدّة: «ينبغي أن ترغب في فعل ذلك بنفسك».

جلبوا سلّته وسُترته، وودّعوا بعضهم، واقترحت الجدّة كأساً من الشيري، لكنّ فيرنر أوضح بأنّه في الحقيقة لم يحبّ هذا الشراب يوماً، ولم يقدّره سوى لارتباطه بذكرياتهما المشتركة الغالية جدّاً عليه.

- «الأمر نفسه بالنسبة إليّ أيضاً». أجابت الجدّة بصدق: «خُذ اتّجاهاً

مستقيماً مروراً بـ «صخور الحصان»؛ فالمياه هناك عميقةٌ طوال الطّريق، وحاول أن تفكّر بطريقةٍ ما لخداعهم».

ردَّ فيرنر: «سأفعل، أعدكِ». وشغّل المحرّك، وانطلق في اتّجاهٍ مستقيم.

- «من هؤلاء الذين سوف يخدعهم؟». سألت صوفيا.

- «الأقارب». قالت الجدّة: «أقارب مخيفون؛ إنّهم يقولون له ما عليه أن يفعل من دون أن يسألوه عن رغباته؛ ولهذا لم تعد لديه رغبة في شيءٍ قطّ».

- «فظيعٌ جدّاً!». صاحت صوفيا: «لا يمكن أن يحدث هذا معنا أبداً!».

- «أبداً». قالت الجدّة.



ديدان الطُعْم وغيرها

في أحد فصول الصّيف، وعلى نحوٍ مفاجئٍ تماماً، بدأت صوفيا بالخوف من الحيوانات الصّغيرة، وكلّما صغرت زاد خوفها منها، وكان هذا الأمر جديداً على الجدّة؛ فمنذ أنْ نجحت صوفيا في اصطياد عنكبوتها الأوّل بعلبة الثّقاب لجعله حيوانها الأليف، امتلأت أصيافها باليَرقات، والشّراغيف، والدّيدان، والخنافس، وما شابه ذلك من كائناتٍ لا يمكن تحمّلها، لكنْ نالت من صوفيا ما تنتظره كلّه من الحياة، وفي النهاية، حتّى من حريّتها، لكنْ تغيّر كلّ شيء؛ فأصبحت تمشي بخطى حَذرة وقلقة بينما تركّز النّظر في الأرض بحثاً عن أشياء تتسلّل، أو تزحف، فالشُّجيرات خطِرة، والعشب البحريّ خطِر، ومياه الأمطار خطِرة. الحيوانات موجودةٌ في كلّ مكان، ويمكن أنْ توجد بين غلافَيْ كتابٍ، مسطّحةً وميتةً، ففي الحقيقة إنّ الحيوانات الزّاحفة، والحيوانات الممزّقة، والحيوانات الميتة، تشارك الشّخص حياته من البداية إلى النّهاية. حاولت الجدة الحديث عن الموضوع، لكنّها لم تفلح؛ إذْ من الصّعب جدّاً معالجة الخوف غير العقلانيّ.

ذات صباحٍ وجدوا بُصيلةً غريبةً على رمل الشّاطئ، وقرّروا زرعها خارج غرفة الضّيوف، ووضعت صوفيا مجرفتها في الأرض لتحفر حفرةً،

فقطعت المجرفة دودةً من تلك التي تُستعمل طُعماً لصيد السّمك، وقسمتها نصفين، وشاهدت صوفيا كلا النّصفين يلتفّان في التّراب الأسْود، فرمت المجرفة من يديها، وتراجعت إلى جدار الكوخ، وهي تصرخ.

- «سوف ينموان من جديد». قالت الجدّة: «هذا أكيد؛ سوف ينموان من جديد. لا بأس، صدّقيني». وبينما هي تضع البُصيلة في التّربة واصلت الكلام عن الدّودة، وهدأت صوفيا، لكنْ ظلّت شاحبةً للغاية، وجلست صامتةً على سلالم الشُّرفة، وذراعاها حول ركبتيها.

- «أظنّ». قالت الجدّة: «أظنّ أنّه لم يهتمّ أحدٌ بما فيه الكفاية بديدان الطُّعم. لو يهتمّ بها أحدٌ حقّاً، فسيكون عليه أن يكتب كتاباً عنها».

في المساء سألت صوفيا عمّا إذا كانت كلمة some تُهَجّأ بحرف a أم بحرف o.

- «بحرف o». قالت الجدّة.

- «لن أستطيع التقدّم في هذا الكتاب!». قالت صوفيا بغضب: «لا يمكنني التّفكير بما إذا كان عليّ أن أقلق بشأن التهجئة طوال الوقت، فأنا أنسى أين كنت، ويصبح كلّ شيء فوضى!». كان الكتاب مكوّناً من صفحاتٍ كثيرةٍ خيطتْ معاً من ظهره، فرمته صوفيا على الأرض.

- «ما عنوانه؟». سألت الجدّة.

- دراسة عن ديدان الطُّعم التي انقسمت إلى نصفين، لكنّي لن أكتبه أبداً.

- «اِجلسي في مكانٍ ما، وامْلِيهِ عليّ». قالت الجدّة: «أنا أكتب، وأنتِ تقولين ماذا سأكتب. لدينا وقتٌ بلا حدود. والآن، أين وضعت نظّاراتي ثانية؟».

كان مساءً مناسباً على نحوٍ خاصٍّ لأنْ يبدأ المرء بكتاب، ففتحت

الجدّة الصّفحة الأولى التي أضاءها نورٌ معتدلٌ أرسله الغسق عبْر النّافذة، التي كان فيها بالفعل رسمٌ لدودة طُعمٍ قُسمت إلى نصفين، وكانت غرفة الضّيوف هادئةً، وفيها برودةٌ لطيفةٌ، ووراء حائط الغرفة جلس الأب يعمل.

- «أحبّ أن أراه يعمل». قالت صوفيا: «إذْ أعرف عندها أنّه موجود. اقرئي ما كتبتِ».

- «الفصل الأوّل». قرأت الجدّة: «بعضهم يصيد مستخدماً الديدان، ثمّ فراغ، ثمّ تكملين: لا أريد أن أذكر أسماءهم، لكنّ والدي ليس منهم، إذا فكّر المرء بدودة طُعمٍ، وكانت الدّودة خائفةً، فتتكوّر وتقلّص حجمها إلى... كم سيتقلّص حجمها؟».

- مثلاً: إلى سُدس طولها.

- «مثلاً: إلى سُدس طولها، فتصبح صغيرةً وسميكةً، ثمّ يغدو من السّهل خرْقها بالصّنّارة، وهو ما لم يخطر ببالها؛ أمّا إذا أخذ المرء دودةً ذكيّةً، فإنّها ستجعل نفسها طويلةً بأكبر قدْرٍ ممكنٍ؛ لكي لا يكون هناك شيءٌ يمكن أنْ يخرقه الخطّاف، ثمّ تنقطع. العِلم لا يعرف إلى الآن إذا كانت تتمزّق وحسب أم إنّ الدّودة ذات تفكيرٍ إبداعيٍّ؛ ذلك لأنّ المرء لا يعرف دوماً ذلك، ولكن... ».

- «لحظة». قالت الجدّة: «هل لي أن أكتب: إذا كانت الدّودة لا تحتمل أم بسبب ذكائها؟».

- «اُكتبي ما تشائين». قالت صوفيا بصبر نافذ: «فقط لكي يفهم القارئ. والآن، لا أريد أن تزعجيني. استمرّي هكذا: إنّها تعرف تمام المعرفة أنّها إذا ما تمزّقت فسيبدأ نصفاها بالنموّ كلٌّ بمفرده تماماً. فراغ. أمّا أيّ ألمٍ يسبّبه ذلك، فهو ما لا نعلمه، كما لا نعلم إذا كانت الدّودة تخاف أنْ يؤلمها

ذلك، لكنْ على كلّ حال هي تحسّ بأنّ شيئاً ما حادّاً كالسكّين يصبح أقرب فأقرب منها طيلة الوقت؛ إنّها الغريزة، وبالمناسبة، أقول لكِ: إنّه لا يمكن القول: إنّها بالغة الصِّغر، أو إنّ ما لديها كلّه هو فقط قناةٌ هضميّةٌ، وإنّ هذا هو الذي يجعلها لا تحسّ بالألم. أنا متأكّدةٌ من أنّها تتألّم، لكنْ ربّما لثانيةٍ واحدةٍ فقط، والآن أفكّر بتلك الدّودة الذكيّة التي أطالت نفسها، ثمّ قطعت نفسها عند الوسط، فقد يكون مثلاً: يشبه خلْع سنٍّ، إلّا أنّه لا يؤلم، ثمّ بعد أنْ هدّأت الدّودة أعصابها، أحسّت على الفور أنّها الآن قصرت، ثمّ شاهدت نصفها الآخر بجوارها تماماً، ولكي يصبح هذا كلّه سهل الفهم بعض الشّيء، فإنّي أقوله على هذا النحو: إنّ كلا النّصفين سقطا على الأرض، وذهبا مع الصنّارة، إنّهما لم يستطيعا أنْ يكبرا معاً مرّةً أُخرى؛ لأنّهما كانا ساخطين على نحوٍ فظيعٍ، كما أنّهما لا يفكّران في الأمر أبداً، ثمّ عرفا أنّهما بمرور الوقت سينموان من جديد كلٌّ في مكانه، وأظنّ أنّهما نظرا إلى بعضهما، وكلٌّ رأى الآخر مخيفاً، فزحفا بعيداً عن بعضهما بأسرع ما يستطيعان، ثمّ أخذا يتأمّلان الأمر، وأحسّا بأنّ الحياة كلّها قد أصبحت مختلفةً لكنّهما لم يعرفا كيف، أو بأيّ شكل».

استلقت صوفيا على ظهرها في السّرير، وراحت تفكّر، وصار الجوّ مثيراً للتوجُّس في غرفة الضّيوف، ونهضت الجدّة لإشعال المصباح.

– «أُتركيه». قالت صوفيا: «غير مسموحٍ لكِ بإشعال المصباح؛ خُذي مصباح الجيب. اسمعي! هل كلمة «نفترض» صحيحة؟».

– «نعم». أجابت الجدّة، ووضعت مصباح الجيب المضاء على طاولة السّرير، وانتظرت.

– «نفترض أنّ ما عاشه النّصفان كلّه بعد ذلك أصبح يعادل نصفاً فقط، لكنْ أيضاً بطريقةٍ جعلتهما بهذا الشّكل، أو ذاك يشعران بالارتياح، ثمّ

يشعران بأنّه لم يعُد ثمّة شيءٌ ممّا فعلاه كان بشكلٍ، أو بآخر، خطأهما، إنّهما فقط يلومان بعضهما، أو ربّما أيضاً قالا: إنّه بعد شيءٍ كهذا أصبح كلٌّ منهما غريباً عن نفسه. ثمّة شيءٌ واحدٌ يعقّد الأمر، وهو أنّه ثمّة فرقٌ كبيرٌ للغاية بين الطّرف الأماميّ وبين الطّرف الخلفيّ؛ فالدّودة لا ترجع أبداً إلى الخلف؛ ولهذا فرأسها يكون في أحد طرفيها، لكنْ إذا كان الله قد جعل ديدان الطُّعم بهذا الشّكل؛ بحيث يمكنها أنْ تنقسم، ثمّ يمكنها أنْ تنمو مرّةً أُخرى، فلا بدّ إذنْ من أنّ هنالك عصباً سرّيّاً يكون في الطّرف الخلفيّ للدّودة يساعدها في التّفكير، وإلّا فلن تستطيع الدّودة العيش بمفردها طويلاً، لكنّ الطّرف الخلفيّ هو عقلٌ بالغُ الصِّغر، إنّه يتذكّر نصفه الآخر الذي هو النّصف الرئيس صاحب القرار عن كلّ شيء، والآن». قالت صوفيا، وهي تجلس: «الآن يسأل الطّرف الخلفيّ: في أيّ اتّجاهٍ سوف أنمو؟ هل يجب أنْ أصنع ذيلاً جديداً أم يجب أنْ أصنع رأساً جديداً؟ وهل سأظلّ بعد ذلك تابعاً، ولا أقرّر بشأن الأشياء المهمّة أم سأكون الجزء الذي يعرف كلّ شيءٍ على نحوٍ أفضل إلى أن أنقطع مرّةً أُخرى فيما بعد؟ سيكون ذلك مثيراً، لكنْ يحدث أنّ الدّودة قد اعتادت أن تكون الذّيل، وعندها تدع الأشياء كما هي. هل كتبتِ كلّ شيءٍ قلته؟».

- «كلّ شيءٍ تماماً». قالت الجدّة.

- «الآن نأتي إلى خاتمة الفصل: لكنْ ربّما يعتقد الطّرف الأماميّ أنّه من المريح ألّا يسحب وراءه أيّ شيءٍ أبداً، لكنْ من يدري؟ فهذا ليس مؤكّداً. لا شيء مؤكّدٌ تماماً عندما تكون في وضعٍ بحيث يمكن في أيّة دقيقةٍ أن تنقطع من النّصف، لكنْ كيفما نظرنا إلى الأمر، يجب الكفّ عن الصّيد باستخدام الدّيدان».

- «أجل، أجل». قالت الجدّة: «انتهت الدّراسة، وكذلك الورق».

- «بل لمْ تنتهِ بعْد». قالت صوفيا: «الآن يأتي الفصل الثّاني، لكنْ أفكّر بأنْ أُنجزه غداً. كيف يبدو لكِ هذا؟».

- مقنعٌ جدّاً.

- «أنا أيضاً أرى هذا». قالت صوفيا: «ربّما يتعلّم النّاس شيئاً ممّا قلتُهُ».

استمرّتا في المساء التالي تحت عنوان: «حيوانات أُخرى مُحزنة».

- الحيوانات الصّغيرة تثير حزناً كبيراً. أتمنّى لو أنّ الله لم يخلق قطُّ هذه الحيوانات الصّغيرة، أو كان قد خلقها ناطقةً، أو أعطاها وجوهاً واضحة. فراغ. خُذ الفراشات اللّيليّة مثلاً: إنّها تطير وتطير نحو المصباح، وتحرق نفسها، ثمّ تطير إلى هناك مرّةً أُخرى، لا يمكن أن يكون هذا غريزةٌ؛ فالغريزة لا تعمل بهذه الطّريقة، هذه الفراشات لا تفهم شيئاً، وهي فقط تذهب لتفعل ذلك، ثمّ تستلقي على ظهرها، وأرجلها كلّها ترتعش، ثمّ تموت. هل أكملتِ الكتابة؟ هل يبدو جيّداً؟

- «إنّه جيّدٌ جدّاً». قالت الجدّة.

نهضت صوفيا وهتفت: «اُكتبي هذا: اُكتبي أنّني أكره كلّ شيءٍ يموت ببطء! قولي: إنّني أكره كلّ شيءٍ لا يسمح لنا بالمساعدة! هل كتبتِ هذا بدقّة؟».

- نعم، لقد فعلت.

- «والآن، يأتي الذّباب طويل الأرجُل. أفكّر كثيراً بالذّباب طويل الأرجُل؛ لا يمكنكِ أبداً أن تساعدي ذبابةً من هذا الصّنف من دون أن تنكسر ساقان منها. كلّا! اُكتبي: ثلاث سيقان. لماذا لا يستطيع هذا الذّباب سحب سيقانه إلى الدّاخل؟ اُكتبي أنّ الأطفال الصّغار يعضّون طبيب الأسنان، ولكنّ الذي يتأذّى عندئذٍ هو الطّبيب، وليسوا هُم. انتظري قليلاً». واصلت صوفيا التأمّل، ووجهها بين يديها: «اُكتبي: سمك، ثمّ

فراغ. السّمك الصّغير يموت أبطأ من السّمك الكبير، ومع ذلك فإنّ النّاس لا يبالون بالسّمك الصّغير، يتركونه مُلقى في أرض الجبل إلى وقتٍ غير محدودٍ، ويتنفّس الهواء، وحاله مثل أن تُبقي رأس شخصٍ غاطساً تحت الماء، والقطّة». تابعت صوفيا: «كيف تعلمين أنّها تبدأ أكل السّمكة من رأسها؟ لماذا لا تتأكّدون من موت السّمكة؟ قد تكون القطّة متعَبةً، وقد يكون طعم السّمك رديئاً، وهكذا تبدأ القطّة من ذيل السّمكة، فأصرخ أنا! أنا أصرخ عندما يكون السّمك مالحاً، ويصبح الماء ساخناً، والسّمك يتقافز! أنا لا آكل مثل هذا السّمك، وهذا هو جزاؤكم».

- «أنت تُمْلين بسرعةٍ شديدة». قالت الجدّة: «هل سأكتب: هذا هو جزاؤكم؟».

- «لا». قالت صوفيا: «هذه دراسة. اِنتهي عند: يتقافز». صمتت للحظاتٍ، ثمّ تابعت: «الفصل الثّالث. فراغ. أنا آكل السّلطعون، لكنْ لا أريد أن أشاهد غلْي السّلطعونات؛ إذْ تصبح عندئذٍ مقرفةً، ويتوجّب الحذر كثيراً».

- «هذا صحيح». قالت الجدّة مع ضحكةٍ مكتومة.

- «يا إلهي!». انفجرت صوفيا: «هذه أمورٌ جدّيّةٌ، فلا تتكلمي. أُكتبي: أكره فئران الحقل. كلّا. أُكتبي: أكره فئران الحقل، لكنْ لا أحبّ أنْ تموت. إنّها تصنع أنفاقاً في الأرض، ثمّ تأكل بُصيلات أبي، وإنّها تعلّم أطفالها صنع الأنفاق، وأكل البُصيلات، وفي اللّيل تنام، وأذرُعها حول بعضها. إنّها لا تعرف أنّها حيواناتٌ تعِسة. هل هذه كلمةٌ جيّدة؟».

- «جيّدة جدّاً». قالت الجدّة، وتابعت الكتابة بأسرع ما تستطيع.

- «ثمّ تأكل ذرةً مسمومةً، أو تعلّق من أقدامها الخلفيّة في الفِخاخ. إنّه أمرٌ جيّدٌ أنْ تعلّق، وأنْ تتسمّم بطونها وتنفجر! لكنْ ما العمل؟ أُكتبي: ما

العمل لكي لا نعاقبها حتّى ترتكب شيئاً بالفعل؟ وبعد ذلك فات الأوان على أيّ حال؛ إنّه صعبٌ جدّاً، إنّها تلد تسعة أطفالٍ كلّ عشرين دقيقة».

- «كلّ عشرين يوماً». غمغمت الجدّة.

- «وهي تعلّم أطفالها. والآن أنا لا أفكّر فقط بفئران الحقل، إنّما أفكّر بالحيوانات الصّغيرة جميعها التي تعلّم أطفالها، وهي تصبح أكثر فأكثر، ثمّ تعلّم أطفالها، ثمّ تتربّى جميعاً بطريقةٍ خاطئة. أسوأ ما في هذه الحيوانات الصّغيرة جدّاً هو أنّها موجودةٌ في كلّ مكانٍ، ولا يراها المرء إلّا بعد أن يتعثّر بها، وأحياناً لا يراها حتّى عندئذٍ، إنّما يعرف فقط، ثمّ يشعر بتأنيب الضّمير على كلّ حال؛ فمهما عمل المرء يظلّ الوضع سيّئاً؛ ولهذا فالأفضل ألّا نفعل شيئاً أبداً، أو أن نفكّر بأشياء أُخرى. انتهى. هل هناك مكانٌ لرسمة الختام؟».

- «نعم». قالت الجدّة.

- «هذه يمكنكِ أنت رسْمها». أوضحت صوفيا: «كيف يبدو؟».

- هل أتلوه؟

- «لا». ردّت صوفيا: «لا، لا أظنّ ذلك؛ ليس عندي وقتٌ حاليّاً، لكنْ احتفظي بالدّراسة لأطفالي».





عاصفة صوفيا

حين يُذكر ذلك الصّيف لا تُذكَر معه السّنة التي وقع فيها، إنّما يُعَرَّف بصيف العاصفة الكبرى. لم تعرف ذاكرة النّاس أمواجاً كهذه عَبرت في الخليج الفنلنديّ، وجاءت قادمةً من الشّرق؛ حيث ارتفعت قوّة الرّياح إلى تسع درجاتٍ على مقياس بوفورت، لكنّ الأمواج بلغت علوّاً وطولاً يعادلان عشر درجاتٍ، أو إحدى عشرة على حدِّ زعْم بعضهم، وصادف أنْ يحدث ذلك في عطلة نهاية الأسبوع؛ حيث توقّع المذياع رياحاً خفيفةً متغيّرةً؛ ولهذا كانت القوارب جميعها مُعدّةً لطقسٍ جميلٍ؛ أمّا كيف نجتْ تلك القوارب، فليس سوى رحمة من الله؛ إذْ إنّ العاصفة جاءت في نصف ساعةٍ، وتصاعدت بسرعةٍ إلى أقصى قوّتها، وبعد ذلك حلّقت

طائرات الهليكوبتر الحكوميّة حول السّاحل، والتقطت النّاس العالقين بين الجُزَيرات الصخريّة الصّغيرة، أو في قواربهم التي ملأتها المياه، وهبطت تلك الطّائرات على كلّ جُزَيرةٍ صخريّةٍ فيها أثرٌ للحياة، وعند أبسط مبنى، ودوّنت اسم الجُزَيرة، وأسماء النّاجين في قائمة. لو كان النّاس يعلمون من البداية أنّ الجميع سيُنقَذون لكانوا أعطوا العاصفة انتباههم الكامل وإعجابهم! ولسنواتٍ عديدةٍ بعد ذلك ظلّ ساكنو السّاحل لا يقدرون على أن يلتقوا من دون أن يتحدّثوا عن العاصفة، وأين كانوا موجودين وقتها، وماذا فعلوا عند قدومها.

كان ذلك اليوم دافئاً، ويلفّه ضبابٌ مائلٌ إلى الاصفرار، ومضت الأمواج العالية الطّويلة في البحر مثل جيَشان بالكاد يُلحظ، وفيما بعد حكى النّاسُ الكثير حَول الضّباب الأصفر، والأمواج العالية، وذكّرت بعضهم بالقصص التي قرأوها في طفولتهم عن أعاصير التيفون، وكانت المياه لامعةً أيضاً على غير المُعتاد، ومنخفضةً أكثر من الطّبيعيّ.

وضعت الجدّة العصيّ والشّطائر في سلّةٍ، ووصلوا إلى «غروسكير الشّماليّة» عند السّاعة الثّانية عشرة، فنصب والد صوفيا شبكتين في الجهة اليُسرى، وساعدته الجدّة في القارب. تحمل «غروسكير الشّماليّة» طابَعاً من الهجران العميق والسوداويّة، لكنّهم لم يستطيعوا منْع أنفسهم من الذّهاب إلى هناك، وكانت كابينة مرشد السُّفن الفارغة متطاولةً وواطئة، وأساسها الحجريّ بناهُ الرّوس، وقد ثُبّتت بالصّخرة الجبليّة بحاصراتٍ حديديّةٍ، وكان السّقف قد انهار من أحد الجوانب، لكنّ البُرج المربّع الصّغير في المنتصف كان سليماً، وطارت مئاتٌ من طيور السّنونو حَول المنزل مطلقةً صفيراً حادّاً، وأُغلِقَ البابُ بقفلٍ كبيرٍ صدئٍ، ولم يكن المفتاح موجوداً عند السُّلّم حيث نَما نبات القرّاص مثل جدار.

جلس الأب على الشّاطئ ليعمل، وكان الجوُّ شديد الحرارة، وزاد ارتفاع الموج، والضّوء الأصفر الشّديد عبْر الماء يضرب عينيه، فأسْند ظهره إلى الصّخرة وغفى.

- أحسّ كأنّ هناك عاصفةً برقيّة». قالت الجدّة: «والبئر تفوح برائحةِ نتنةٍ أسوأ من أيّ وقتٍ مضى».

- «إنّها ممتلئةٌ بالجِيَف». قالت صوفيا.

نظروا في فتحات البئر الصّغيرة، من خلال حلقات الإسمنت، إلى الأسفل في الظّلام، وقد تشمّمتا البئر على الدّوام، ثمّ نظرتا إلى كومةٍ من نفايات مُرشدي السُّفن.

- أين والدك؟

- إنّه نائم.

- «إنّها فكرةٌ جيّدة». قالت الجدّة: «أيقظيني إذا فعلتِ شيئاً مسلّياً». واختارت بقعةً من الرّمل بين شُجيرات العرْعر.

- «متى سنتناول الطّعام؟ متى سنسبح؟». سألت صوفيا: «متى سنتجوّل في الجزيرة؟ هل سنأكل، أو نسبح، أم إنّكما لن تفعلا شيئاً آخر غير النّوم؟».

كانت هناك سخونةٌ، وصمتٌ، وشعورٌ بالوحدة؛ البيت جاثمٌ مثل حيوانٍ طويلٍ مسطّحٍ تطير فوقه سنونواتٌ سوداء، كأنّها سكاكين في الهواء، مطلقةً صرخاتٍ كالصّرير. تمشّت صوفيا حَول الشّاطئ، ورجعت ثانيةً، ولم يكن في أنحاء الجزيرة كلّها شيءٌ آخر سوى الصّخور الجبليّة، والعرْعر، وأحجار الرَصْف المستديرة، والرّمل، وخصل العُشب الجافّ، وحُجبت السّماء والبحر بالضّباب الأصفر، الذي كان أقوى من شعاع الشّمس، ويؤلم العيون، وارتفعت الأمواج العالية مثل تلالٍ طويلةٍ، وراحت تلقي

بنفسها لتتحطّم في موجاتٍ متكسّرةٍ على الشّاطئ؛ كانت أمواجاً هائلةً!
«أرجوك يا الله، دع شيئاً يحدث». دعت صوفيا: «يا إلهي، إنْ كنت تحبّني،
إنّي أموت من الملل، آمين».

لعلّ التّغيير جاء عندما صمتت طيور السّنونو؛ كانت السّماء المتلألئة فارغةً، فلم تعُد هناك طيورٌ. انتظرت صوفيا، وكان الهواء يحمل استجابةً لصلاتها، فراحت تراقب البحر، ورأت الأفق يسْوَدّ، وانتشر السّواد، واختلجت المياه من التوقّع والجَزع؛ إنّها تقترب، ووصلت الرّيح بهمسٍ صاخبٍ إلى الجزيرة، وواصلت طريقها، ثمّ حلّ السّكون من جديد. انتظرت صوفيا على الشّاطئ؛ حيث كان عشب الشّاطئ يمتدّ نحو الأرض مثل فَروٍ فاتح اللّون، وحلّ ظلامٌ آخر منتقلاً عبْر المياه؛ كان هذا هو العاصفة الكبرى! فركضت نحوها، واحتضنتها الرّيح، وكانت صوفيا باردةً ومتوهّجةً معاً، وهي تصيح: «إنّها تهبّ! إنّها تهبّ!». أرسل الله لها وحْدها عاصفةً، فصعد الماء، وفي إحسانه غير المحدود دفع كميّاتٍ ضخمةً من المياه نحو الأرض، واكتسحت المياه الشّواطئ، والعشب، والطُّحلب، وما بين شُجيرات العرْعر، وراحت صوفيا تضرب بأقدامها الصّلبة على الأرض، وهي تركض إلى الأمام، وإلى الوراء، وتحمد الله، وأصبح كلّ شيءٍ سريعاً وحادّاً، وأخيراً، حدث شيء!

استيقظ الأبُ، وتذكّر شِباكه، وكان القارب هناك، ويصطدم جانبه العريض بالشّاطئ، وكانت المجاذيف تتدحرج إلى الأمام والخلف، وقد قطع المحرّك شيئاً من العشب البحريّ الملتفّ على نفسه كحبلٍ، ففكّ الحبلَ، وانطلق عكس اتّجاه الأمواج، وأخذ يجذّف. مثل جبلٍ مقوّسٍ، أحاطت الأمواج العالية بمنطقة السّاحل التي لا تصل إليها الرّيح، وفوقها كانت السّماء ما تزال صفراء، وفارغةً، وتضيء، وهناك جلس الله، وأعطى صوفيا عاصفتها، وعلى طول السّاحل ساد الارتباك والتفاجؤ نفسه.

أحسّت الجدّة في أعماق نومها كيف كانت الأمواج المتكسّرة تتدحرج هادرةً عبْر الأرض، فجلست وأخذت تصغي إلى البحر.

استلقت صوفيا على ظهرها فوق الرّمل إلى جوارها وهتفت: «إنّها عاصفتي! لقد دعوت الله أن يرسل عاصفةً، وها هي جاءت!».

- «ممتاز». ردّت الجدّة: «ولكنْ لدينا شِباكٌ في المياه».

ليس سهلاً أن يسحب شخصٌ الشِّباك بمفرده؛ أمّا مع الرّياح، فهو مستحيلٌ تقريباً. كان الأب قد شغّل المحرّك بسرعةٍ بطيئةٍ، ومؤخّرة القارب باتّجاه المياه، وبدأ بسحب الشِّباك، فتمكّن من إنقاذ الشّبكة الأولى بتمزّقٍ واحدٍ فقط، لكنّ الثّانية علقت في القاع، أوقف المحرك، وحاول سحْب الشّبكة من الجانب، فانكسر خطّ حافّتها، وفي النّهاية تخلّى عن تعديل وضع الشّبكة، وسحبها ببساطةٍ، فصعدت، وقد تحوّل حبْلها الرّئيس إلى عقدةٍ مشتبكةٍ مع أعشابٍ بحريّةٍ وأسماك، وطرحها في أرضيّة القارب. كانت صوفيا وجدّتها واقفتين تنظران حين قدِم القاربُ صَوب الشّاطئ وسْط مياهٍ طاغيةٍ، فقفز الأب عن القارب، وألقى بنفسه نحو جانب القارب، وراح يسحب، وأحاطت موجةٌ ثائرةٌ عريضةٌ باللّسان الصّخريّ، واصطدمت بعارضة مؤخّرة القارب ودفعته، وعندما تراجع الماء استقرّ القارب بثباتٍ على أرض الشّاطئ، فربط الأب القارب، وأخذ الشِّباك بذراعيه، ودخل عبْر الجزيرة، مائلاً ضدّ الرّيح، تبِعتاه، وهُما متقاربتان جدّاً، وعيونهما تشتعلان، وشفاههما مالحتان، ومشت الجدّة متباعدة السّاقين، وعصاها تضرب الأرض بشدّة. أثارت الرّيح القمامة من البئر، وأطلقتها باتّجاههم، وما استقرّ هناك كلّه ليتعفّن، ويتحوّل إلى تربةٍ بعد مئةِ عامٍ؛ ها هو يطير ويدور حول الشّواطئ، ويُدخل في البحر العاصِف نفايات مُرشدي السُّفن القديمة، والنّتانة الخارجة من البئر، والحزن

البطيء للأصياف كلّهم. الجُزَيرة كلّها قد غُسلت ونُظّفت على يد الأمواج المتكسّرة، والزَّبد الأبيض المُتطاير.

- «هل يُعجبك هذا؟». هتفت صوفيا: «إنّها عاصفتي! قولي: إنّ هذا ممتع!».

- «ممتعٌ جدّاً!». ردّت الجدّة، وهي ترمش لتطرد ماءً مالحاً من عينيها.

ألقى الأب شِباكه عند السّلالم؛ حيث كانت نباتات القرّاص قبْل أنْ تتطاير وتستقرّ كبساطٍ رماديٍّ، ثمّ خرج بمفرده صَوب اللّسان الصّخريّ لينظر إلى الأمواج، وكان في عَجَلةٍ من أمره، وجلست الجدّة على الصّخرة الجبليّة، وبدأت بإخراج الأسماك من الشّبكة، وكان أنفها يسيل، وشعرها يتطاير في الاتّجاهات كلّها.

- «عجيبٌ أمري!». قالت صوفيا: «دائماً أشعر بأنّني طيّبةٌ جدّاً وقت العاصفة».

- «أحقاً؟». قالت الجدّة: «قد يكون هذا حقيقيّاً...». «طيّبة». فكّرت الجدّة: «كلّا، بالتأكيد أنا لست طيّبةً، أفضل ما يمكن قوله عنّي هو: إنّني مهتمّة». وأخرجت سمكة فرخٍ، وألقتْ بها على الصّخرة.

بحجرٍ كبيرٍ كسر الأب قفل باب كوخ مُرشدي السُّفن؛ فعل ذلك ليحمي أُسْرته.

كانت الردّهة ضيّقةً، وهناك ممرٌّ معتمٌ يقسم الكوخ إلى غرفتين، وعلى الأرض كانت ثمّة طيور قد ماتت منذ سنين عديدة، طيور دخلت هذا البيت المتداعي، ولم تعرف قطّ كيف تخرج منه، وكانت تفوح رائحة الخِرَق والسّمك المالح، وفي الدّاخل، تغيّر الصّوت المتواصل للعاصفة، وصارت لها نغمة تهديدٍ باطنيّة تزداد اقتراباً.

دخلوا الغرفة التي على اليسار، والتي ما تزال تحتفظ بسقفها، وكانت

غرفةً صغيرةً للغاية: بسريرين حديديّين مكشوفين، وموقدٍ أبيضَ مزوّدٍ بغطاءٍ، وفي منتصف الغرفة انتصبت طاولةٌ وكرسيّان، وكان ورق الحائط جميلاً جدّاً، فوضع الأب سلّتهم على الطّاولة، وشربوا عصيراً، وأكلوا شطائر، وبعد ذلك بدأ يعمل. جلست الجدّة على الأرض، وأخذت تخرج السّمك من الشِّباك، وطوال الوقت كان الهدير القادم من البحر يتردّد في جدران الكوخ مثل اهتزازٍ متواصل. أحياناً، كان الأب ينهض ويخرج لرؤية القارب.

زاد ارتفاع الأمواج عند الجانب الخارجيّ المنحدر. تنهض موجةٌ إثْر أُخرى بضخامتها البيضاء كلّها عاليةً إلى حدٍّ يثير الدُّوار، ويصطفق الزّبد بالجبل مثل ضربات سوط، وعبْر الجزيرة كانت ثمّة سُتُرٌ عاليةٌ من الماء المتطاير بعيداً نحو اليسار؛ كانت عاصفةً أطلسيّة! استغرق الأب بعض الوقت في القارب مرّةً أُخرى، وقام بتوتير أحد الأربطة، وحين عاد صعد علّيّة المُرشدين ليبحث عن وقود، وكان الموقد مبتلّاً إلى حدٍّ ما، ولكنْ عندما اشتعلت النّار أخيراً هبّت بغضب. توقّفوا عن الإحساس بالبرد حتّى قبْل أنْ يغمر الدّفء الغرفة، ووضع الأب شبكة صيد الرّنجة على الأرض أمام الموقد لمن يريد النّوم، وكانت الشّبكة قديمةً جدّاً؛ بحيث إنّها تفتّتت بين يديه، وفي النّهاية، أشعل الأب غليونه، وجلس إلى الطّاولة، واستمرّ بالعمل.

صعدت صوفيا البُرجَ، وكانت غرفة البُرج صغيرةً جدّاً، فيها: أربعُ نوافذ، واحدةٌ لكلّ اتّجاهٍ من البوصلة، ورأت الجزيرة قد انكمشت، وأصبحت صغيرةً على نحوٍ مخيفٍ، فقط بقعة قليلة الأهميّة من الحجر والأرض عديمة الألوان، غير أنّ البحر كان هائلاً؛ أبيض وأصفر مختلطاً بالرّماديّ، وبلا أُفق. لم يعُد البرُّ الرّئيس موجوداً، ولا حتّى الجُزر، وما كان

موجوداً كلّه هو هذه الجزيرة الوحيدة، مطوّقةً بالمياه، ومهدّدةً ومحميّةً بالعاصفة، ونسيها الجميع ما عدا الله، مُستجيب الدعوات.

– «آهِ يا إلهي!». قالت صوفيا بجدّيّة: «لم أعرف أنّني بهذه الأهميّة؛ كان لطفاً منك، شكراً لك، آمين».

احمرّت الشّمس، وهي تهبط إيذاناً بقرب حلول المساء، وكان الموقد مشتعلاً، والنّافذة اليسرى تتوهّج مثل النّار، وورق الحائط صار أجمل، وكانت فيه في السّابق بقعٌ مائيّةٌ وتمزّقاتٌ، لكنْ الآن يمكن رؤية النّموذج كاملاً بلونٍ أزرق فاتح وورديّ، وأغصانٍ متلويةٍ ملوّنةٍ بعناية. طبخت الجدّة سمكاً في علبةٍ من الصّفيح، وعثرت على ملحٍ، وهو ما أسعدها كثيراً، وبعد الطّعام خرج الأب ليطمئنّ على قاربه.

– «لنْ أنام طوال اللّيل». قالت صوفيا: «تخيّلي كم سيكون مريعاً لو لم نأتِ إلى هنا، وكنّا في بيتنا عندما بدأت العاصفة!».

– «حسناً». قالت الجدّة: «لكنّني قلقةٌ بعض الشّيء على قارب الصّيد، ولا أتذكّر إنْ كنّا أوْصدنا النّافذة».

– «قارب الصّيد». همست صوفيا.

– أجلْ، وبيت النّباتات الزّجاجيّ، ونبتات السّوسنيّات التي بلا أوتادٍ، والأواني التي تركتها تنقع في ماء الخليج.

– «لا تكملي!». صاحت صوفيا.

لكنّ الجدّة استمرّت بلا تفكير: «ثمّ أفكّر بالجميع هناك في الخليج... وبالقوارب كلّها التي خرّبتها العاصفة».

نظرت صوفيا شزراً إليها وصاحت: «كيف يمكنكِ أنْ تقولي ذلك، وأنتِ تعلمين أنّه خطئي! لقد دعوت الله من أجل هذه العاصفة، فهبّت!». وبدأت تبكي بصوتٍ عالٍ، وأمام عينيها مرّت سلسلةٌ طويلةٌ من الصّور

المروّعة والمقنعة لقوارب محطّمة، وسوسنيّات، ونوافذ، وأُناس، وأوانٍ تدحرجت في قاع البحر، وأعلام مزّقتها الرّيح، ونشّافة أوانٍ. آهٍ يا إلهي! رأت كلّ شيءٍ محطّماً ومفقوداً.

- «على كلّ حال، لقد سحبنا -على الأغلب- قارب الصّيد»، قالت الجدة. لكنّ صوفيا أحاطت رأسها بذراعيها، وبكت تحت وطأة كارثة نيلاند الشرقيّة كلّها.

- «إنّه لم يكن خطأك». قالت جدّتها: «استمعي الآن إلى ما أقول: كانت العاصفة ستحدث في الأحوال كلّها».

- «لكنْ ليس بهذا الحجم!». بكت صوفيا: «إنّه الله، وأنا التي فعلت ذلك!».

غربت الشّمس، وأظلمت الغرفة بسرعةٍ، وظلّت النّار تشتعل في الموقد، وما تزال الرّيح تهبّ بالقوّة نفسها.

- «الله وأنت!». كرّرت الجدّة بغضب: «ولماذا سيستجيب لكِ بالذّات إذا كان مثلاً: عشرة أشخاصٍ آخرون قد دعوه بأن يمنحهم طقساً جميلاً؟ وهُم قد فعلوا بالتّأكيد».

- «لكنْ أنا التي دعوت أوّلاً». قالت صوفيا: «وها أنتِ ترين بنفسك بأنّه لم يَصِر طقساً جميلاً!».

- «الله». قالت الجدّة: «الله لديه الكثير ليفعله، فهو لا يكاد يستمع إلى...».

عاد الأب حاملاً حطباً، وأعطاهما بطانيّةً كريهة الرّائحة، وخرج لينظر إلى الأمواج قبل أنْ تُظلِم.

- «أنتِ بنفسكِ قلتِ: إنّه يستمع إلينا». قالت صوفيا ببرود: «لقد قلتِ: إنّه يسمع كلّ شيءٍ ندعوه لأجله».

استلقت الجدّة على شبكة صيد الرّنجة وقالت: «أجل، أكيد، لكنْ ها أنتِ ترين أنّني كنت الأسبق».



- وكيف كنتِ الأسبق؟

- لقد دعوت قبلكِ؛ هذا هو الأمر.

- «ومتى دعوتِ؟». سألت صوفيا متشكّكة.

- صباح اليوم.

- «ومع ذلك». انفجرت صوفيا بحدّة: «مع ذلك، أخذت معك القليل جدّاً من الطّعام، والقليل جدّاً من الثّياب! ألم تكوني واثقةً به!».

- بالتأكيد كنت واثقة... لكنْ ربّما اعتقدتُ أنّه سيكون مثيراً أنْ نتدبّر أنفسنا بدون أشياء كثيرة معنا....

تنهّدت صوفيا. «أجل». قالت: «هكذا هو أنتِ. هل جلبتِ دواءكِ معكِ؟».

- نعم، جلبته.

- هذا حسنٌ، يمكنك إذنْ أنْ تنامي من دون أن تفكّري بالخراب الذي أحدثْتِه، لن أخبر أحداً بذلك.

- «هذا فضلٌ منكِ». قالت الجدّة.

في اليوم التّالي، عند السّاعة الثّالثة، هدأت الرّيح إلى حدٍّ مكّنهم من العودة إلى المنزل، وهناك وجدوا قارب الصّيد مقلوباً أمام الشُّرفة، لكنْ كان محتفظاً بألواحه، ومجاذيفه، ومغارفه، وكانت النّافذة موصدةً، وثمّة أشياء كثيرة لم يتسنَّ للربّ أنْ ينقذها؛ فقد دعته الجدّة متأخّرةً، ولكنّه حين تحوّلت الرّياح قلَب الأواني معيداً إيّاها إلى الشّاطئ، وجاءت طائرة الهليكوبتر كما تمنّوا، ودوّنت اسم كلّ شخصٍ، وكلّ جزيرةٍ في قائمة.

يوم الخطر

قرابة السّاعة الثّانية عشرة من يومٍ شديد الحرارة، بدأ البرغش رقصهُ فوق أعلى شجرة صنوبرٍ في الجزيرةً، والبرغشُ -الذي لا يجب الخلْط بينه وبين البعوض- يرقص في هيئة غيومٍ عموديّةٍ، ودائماً بإيقاع؛ الملايين والمليارات من الحشرات الطائرة الميكروسكوبيّة ترتفع وتنخفض بدقّةٍ مثاليّةٍ فيما هي تغنّي بصوتٍ حادّ.

- «رقصة العرس». قالت الجدّة، وهي تحاول النّظر إلى أعلى من دون أن تفقد توازنها: «كانت جدّتي تقول: إنّه إذا رقص البرغش، والقمر بدرٌ؛ فيجب الحَذر».

- «لماذا؟». سألت صوفيا.

- لأنّه يومُ التّزاوج العظيمُ؛ حيث لا شيء آمنٌ، وعلى المرء أن يتوخّى الحذر حتّى لا يعبث بمصيره، فلا ترمي الملح، أو تكسري المرايا، وإذا غادرت طيور السّنونو منزلك، فالأفضل أن تنتقلي منه قبْل المساء؛ الكثير من المزعجات مرّةً واحدة.

- «كيف تمكّنت جدّتكِ من اختلاق أشياء سخيفةٍ كهذه؟». سألت صوفيا.

- جدّتي كانت تؤمن بالخرافات.

- وما معنى خرافات؟

فكّرت الجدّة قليلاً، وأجابت بأنّ معناها ألّا يحاول المرء تفسير الأشياء غير القابلة للتفسير، مثلاً: غلْي الأشربة السحريّة عندما يكون القمر بدراً، وبالفعل يشتغل مفعول الأشْربة عندئذٍ. كانت جدّة الجدّة متزوّجةً برجُل دينٍ لم يكن يؤمن بالخرافات، وكلّما مرض، أو اكتأب، كانت تغلي له إكسيراً، لكنْ كانت المسكينة تضطرّ أنْ تفعل ذلك سرّاً، وعندما كان يشفى بتلك العلاجات، كان عليها القول: إنّ ما أعطته إيّاه لم يكن سوى قطراتٍ من عقارٍ منشّطٍ، لقد لازمها توتّرٌ بسبب ذلك إلى أمدٍ طويل.

جلست صوفيا وجدّتها على الشّاطئ لتُكملا حديثهما، وكان نهاراً جميلاً بموجاتٍ طويلةٍ بلا رياح. في مثل نهارٍ كهذا تماماً، وفي أشدّ أيّام الصّيف حرارةً، يحدث أن تترك القوارب شواطئها مبحرةً من دون رَبابينها، وأن تقصد الشّواطئ من البحر أجسامٌ غريبةٌ كبيرةٌ، ويغرق بعضها، ويطفو بعضها، ويغدو الحليب حامضاً، وترقص اليعاسيب بجنونٍ، وتصير السّحالي غير خائفةٍ، وحين يعلو القمر، تتزاوج العناكب الحمراء في الجُزَيرات المهجورة، فتصير الصّخرة الجبليّة عبارة عن بساطٍ متّصلٍ من العناكب الصّغيرة المنتشية.

- «ربّما علينا تحذير أبي». قالت صوفيا.

- «لا أظنّه يصدّق الخرافات». ردّت الجدّة: «وبالمناسبة، إنّ الخرافات قد عفا عليها الزّمن، ويجب أن تثقي على الدّوام بأبيكِ أكثر من غيره».

- «بالطبع». قالت صوفيا.

شاهدتا الموج العالي يحمل تاجاً كبيراً من فروع الأشجار الملتوية، كما لو أنّ حيواناً هائلاً كان يتجوّل ببطءٍ خلال قاع البحر، وكان الهواء يقف ساكناً، ويهتزّ بالحرارة فوق الصّخرة الجبليّة.

- «ألم تكن جدّتك تخاف قطّ؟». سألت صوفيا.

- «كلّا! هي كانت تحبّ إخافتنا، وكانت تأتي لتناول الفطور، وتقول: إنّ أحداً سيموت الآن قبل غياب القمر؛ لأنّ السكاكين كانت متقاطعةً في الدُّرج، أو إنّها قد حلمت بطيورٍ سوداء».

- «حلمت ليلة أمس بخنزير غينيا». قالت صوفيا: «هل تعديني بأنْ تأخذي حِذركِ، وألّا ينكسر لكِ عظمٌ قبل غياب القمر؟».

وعدتها الجدّة.

العجيب هو أنّ الحليب قد فسد بالفعل، وكانوا قد أخرجوا من الشّبكة سمكةً من نوع أبو شوكة، وطارت فراشةٌ سوداء في الكوخ، وحطّت على المرآة، وعند المساء، رأت صوفيا على طاولة والدها أنّ السكّين وقلم والدها كانا متقاطعين، فأبعدتهما عن بعضهما بأسرع ما تستطيع، لكنْ ما حصل قد حصل بالطبع، وركضت إلى غرفة الضّيوف، وطرقت الباب بكلتا يديها، ففتحت الجدّة الباب على الفور.

- «لقد حدث شيء». همست صوفيا: «السكّين والقلم كانا متقاطعين على طاولة أبي. كلّا! لا تقولي شيئاً؛ فلا شيء يمكنه أن يهدّئني!».

- «لكنْ ألا تفهمين؟ جدّتي كانت تؤمن بالخرافات». قالت الجدّة: «كانت تختلق ذلك؛ لأنّها كانت تشعر بالملل، ولكي تتحكم بعائلتها...».

- «اُسكتي». قالت صوفيا بجديّة: «لا تقولي شيئاً، لا تقولي شيئاً لي». وتركت الباب مفتوحاً، وذهبت بعيداً.

جاءت برودة المساء الأولى، واختفى البرغش الرّاقص، ووصلت الضّفادع، وبدأت بالغناء لبعضها، وماتت اليعاسيب على الأرجح، وفي السّماء غرقت آخر الغيمات الحُمْر في الغيمات الصُّفْر، وصنعوا معاً غيماً برتقاليّاً، وامتلأت الغابة بالإشارات والإشعارات، وكانت لها في

كلّ مكانٍ لغتها المكتوبة السرّيّة، ولكنْ ما فائدة ذلك للأب؟ آثار أقدامٍ لا أحد يستطيع المرور عليها، وأغصانٌ متقاطعةٌ، وشجيرةُ عِنبيّةٍ حمراءُ وحيدةٌ وسْط شُجيراتٍ خضراء، فصعد القمر، وتوازن على قمّة شُجيرة العرْعر. هذا هو الوقت الذي تنزلق فيه القوارب من شواطئها، وأسماكٌ ضخمةٌ وغامضةٌ صنعت دوائر في الماء، والعناكب الحمراء تجمّعت حيث قرّرت أنْ تلتقي، ووراء الأُفق جلس مصيرٌ قاطعٌ لينتظر، فبحثت صوفيا عن أعشابٍ لصنع إكسيرٍ لوالدها، لكنّ الأشياء كلّها التي عثرت عليها كانت تبدو أعشاباً عاديّةً تماماً، وليس مؤكّداً ما هي الأشياء التي يمكن عَدُّها عُشباً، على الأرجح إنّها أشياء صغيرةٌ بسيقانٍ طريّةٍ وشاحبةٍ، وحبّذا لو كانت متعفّنةً، وتنمو في أماكنَ وعْرة. كيف يعرف المرء؟ صعد القمر إلى أعلى، وبدأ مداره الحتميّ.

صرخت صوفيا عبْر الباب: «ما هي الأعشاب التي كانت تلك الجدّة تغليها؟!».

- «لقد نسيت». أجابت الجدّة.

دخلت صوفيا. «نسيتِ». قالت من بين أسنانها: «نسيتِ؟ كيف يمكن أن تنسي شيئاً كهذا! ماذا تريدينني أنْ أفعل إذا أنتِ نسيتِ هذا؟ كيف تريدينني أنْ أنقذه قبْل مغيب القمر؟».

وضعت الجدّة كتابها جانباً، وأنزلت عنها النظّارات.

- «لقد أصبحتُ مؤمنةً بالخرافات». قالت صوفيا: «أنا أكثر إيماناً بالخرافات من جدّتك. افعلي شيئاً!».

عندئذٍ نهضت الجدّة، وأخذت ترتدي ثيابها.

- «اُتركي الجوارب». قالت صوفيا نافدة الصّبر: «واتركي المشدّ كذلك؛ لأنّنا في عَجلةٍ من أمرنا».



- «لكنْ إذا قطفنا تلك الأعشاب». قالت الجدّة: «إذا قطفناها وصنعنا إكسيراً، فهو لن يشربه».

- «صحيح». أيّدت صوفيا: «ربّما بالإمكان سكْب الإكسير في أُذنه؟».

لبست الجدّة صندلها، وأخذت تفكّر.

فجأةً! بكت صوفيا؛ لقد رأت القمر يعبُر البحر، ولا أحد يخمّن ماذا يفعل القمر، فهو قد يغيب فجأةً تماماً في الأوقات العجيبة التي تخصّه. فتحت الجدّة الباب وقالت: «الآن، ليس لنا أنْ نقول كلمةً واحدةً، ليس لكِ أنْ تعطسي، أو تبكي، أو تتجشّئي، ولو مرّةً واحدةً قبل أن نكون قد جمعنا ما نحتاج إليه، ثمّ نضع كلّ شيءٍ في أكثر مكانٍ آمِنٍ، ونتركه يعمل عن بُعد، في هذه الحالة يمكننا القيام بذلك على نحوٍ جيّدٍ للغاية».

كانت الجزيرة مشرقةً بضوء القمر، والمياهُ شديدة الدّفء، ورأت صوفيا جدّتها تقطف رأس قرنفلةٍ، وعثرت على حجرين صغيرين، وخصلة عشبٍ بحريٍّ جافٍّ، ووضعت كلّ شيءٍ في جيبها، فواصلتا السَّيْر، وداخل الغابة جمعت الجدّة قطعةً من طُحلب الشّجر، وقطعةً من السّرخس، وفراشة ليلٍ ميتة، ولم تقُل صوفيا شيئاً، وهي تتبع جدّتها، بلْ كانت فقط تزداد هدوءاً كلّما وضعت الجدّة شيئاً في جيبها، وكان القمر أحمرَ جزئيّاً، ومضيئاً كالنّهار تقريباً، وتحته كان طريق شعاع القمر يصل حتّى الشّاطئ، فعَبرتا الجزيرة إلى جانبها الآخر، وبين الحين والآخر كانت الجدّة تنحني على الأرض، وتجد شيئاً مهمّاً، وتجوّلت متقدّمةً إلى الأمام، وإلى وسط طريق شعاع القمر، فبدتْ في عيني صوفيا ضخمةً وسوداء، وساقاها متصلّبتين، وعصاها تمضي بخطى متساويةٍ، بدتْ أكبر فأكبر، وتوضّع القمر في قبّعتها، وعلى كتفيها، فكانت تحرس المصير والجزيرة كلّها، وليس هناك ولو قدْراً قليلاً من الشّكّ في أنّ الجدّة ستجد ما تحتاج

إليه كلّه لمنع الحوادث والموت؛ فكلّ شيءٍ وجد له مكاناً في جيبها. ظلّت صوفيا تتبعها طيلة الوقت، وتشاهد كيف حملت الجدّة القمر على رأسها، وصار اللّيل في غاية الهدوء، وحين عادتا إلى الكوخ قالت الجدّة: إنّ الكلام ممكنٌ الآن.

- «لا تتكلّمي!». همست صوفيا: «اِبقي صامتةً، دعيها في جيبك».

- «جيّد». قالت الجدّة، وكسرت قطعةً صغيرةً من السُّلّم المتعفّن، ووضعته أيضاً في جيبها، ثمّ ذهبت للنّوم، وغرق القمر في البحر، ولم يعد ثمّة سببٌ للقلق.

بعد ذلك اليوم كانت الجدّة تحتفظ بلفائف تبغها، وأعواد الثّقاب في جيبها الأيْسر، وعاش الجميع سعداء مع بعضهم حتّى الخريف، وعندها أرسلت الجدّة معطفها إلى محلّ المكوى، وبعد ذلك مباشرةً الْتَوتْ قدمُ والد صوفيا.





آب / أغسطس

في كلّ مرّةٍ تُظلم اللّيالي من دون أن يلْحظ أحدٌ، وعند المساء في شهر آب/ أغسطس يُنجز المرء عملاً ما خارج البيت، وفجأةً! يصبح كلّ شيءٍ أسْودَ كالفحم، ويعمّ صمتٌ كبيرٌ ودافئٌ حول البيت، إنّه ما يزال صيفاً، ولكنّه لم يعُد صيفاً حيّاً، فقد توقّف، لكنْ من دون أن يذبل تماماً، بينما الخريف ليس جاهزاً للمجيء بعْد، ولم تظهر نجومٌ حتّى الآن، إنّما ظلام فقط، وعندئذٍ تُخْرَج صفيحة الوقود من القبو، وتوضع في ركن المدْخل، ويعلَّق المصباح اليدويّ في خُطّافه قُرب الباب.

تبدأ الأشياء تغيّر أماكنها لتساير تتابع المواسم، ولا تفعل ذلك دفعةً واحدةً، إنّما شيئاً فشيئاً، وعلى نحوٍ عابرٍ. كلّ شيءٍ يُنقَلُ إلى مكانٍ أقرب إلى البيت، يوماً بعد يوم، ويُدخل والد صوفيا الخيمة ومضخّة الماء،

ويفكّ قيد الطّوّافة، ويثبّت السّلسة بطوّافة الفلّين، ويُسحب القارب على العربة الصّغيرة إلى أعلى، ويُوضع قارب الصيد في المَحطبة مقلوباً على وجهه؛ تلك هي دلالات بداية الخريف، وفي يومٍ آخر بعد ذلك، تُستخرج البطاطس من الأرض، وتُدحرج حاوية الماء إلى الداخل مقابل حائط الكوخ؛ أمّا الدّلاء وعدّة العمل في الحديقة فتُجعل قريبةً إلى المنزل، وتختفي عُلب الزّينة، ومظلّة الجدّة، وبقيّة الأشياء الجوّالة والعزيزة كلّها تغيّر أماكنها، وفي الشُّرفة تنتصب مطفأة الحريق، والفأس، والملقط، ومجرفة الثّلج، وفي الوقت نفسه يتغيّر المشهد بأكمله.

لطالما أحبّت الجدّة التغيّر الكبير في آب/ أغسطس، ربّما مساره الثّابت خصوصاً؛ أنْ يكون لكلّ شيءٍ مكانه الخاصّ، وليس أيّ مكانٍ آخر. إنّه الوقت الذي تختفي فيه الآثار كلّها، وتستعيد الجزيرة -بقدْر الإمكان- حالتها الأصليّة، فتُغطّى أحواضُ الزّهور المنهَكة بحُزَم من العشب البحريّ، وتؤدّي الأمطار الطّويلة مهمّتها في تسوية الأرض وغسلها، والزّهور التي كانت في طَور التبرعم صارت حمراء، أو صفراء، وانتثرت بقعٌ لونيّةٌ قويّةٌ فوق العشب البحريّ، وداخل الغابة انبثقت بضع ورودٍ بيضاء ضخمة، وعاشت يوماً واحداً في روعةٍ لا مثيل لها.

ربّما كان المطر هو الذي سبّب للجدّة ألماً في ساقيها، فلم تقدر على أن تتمشّى حَول الجزيرة بقدْر ما تريد، لكنّها كانت تمشي مسافةً قليلةً كلّ يومٍ قبل حلول الظّلام مباشرةً، وتكنس الأرض، فكنست الجدّة كلّ شيءٍ له علاقة بالنّاس؛ إذْ جمعت المسامير، وشظايا الورق، والقماش، والبلاستيك، وقطع الخشب التي يغطّيها الزّيت، وبعض سدّادات القناني، ثمّ نزلت إلى الشّاطئ، وأشعلت ناراً وضعت فيها كلّ شيءٍ قابلٍ للحرق، وهي تشعر طوال الوقت بأنّ الجزيرة باتت أنظف وأنظف، وأكثر غربةً وبُعداً. «إنّها تهزُّنا». فكّرت: «وقريباً ستغدو خاليةً من النّاس تقريباً».

الّليالي تزداد غمقاً أكثر فأكثر، وعلى امتداد الأفق سلسلةٌ لا تنقطع من الأضواء الملاحيّة والمنارات، وأحياناً، تصطفق قواربُ كبيرةٌ قاطعةَ المسار البحريّ، وكان البحر بلا حراكٍ، ويسود سكونٌ تامّ.

عندما أصبحت الأرض نظيفةً لوّن والد صوفيا البراغي الحلَقيّة جميعها بأحمر الرّصاص، وفي يومٍ دافئٍ بلا مطرٍ أغرق الشُّرفة بزيت الفقمة، وقام بتزييت الأدوات ومفاصل الأبواب، ونظّف المدخنة من السّخام، وأدخل الشِّباك إلى المخزن، وكدّس الحطب أمام الموقد للرّبيع القادم، ولإشعال النّار لهداية النّاجين من السُّفن الغارقة، وربط سقيفة الحطب بحبلٍ؛ إذْ إنّها قريبةٌ إلى علامة المياه العالية.

- «يجب أن نُدخل أوتاد الزّهور». قالت الجدّة: «إنّها تُفسد المنظر».

لكنّ والد صوفيا ترك الأوتاد في مكانها؛ لأنّه بخلاف ذلك لن يمكنه معرفة ما الذي كان مزروعاً في الأرض عندما يعودون، وكانت الجدّة قلقةً حَول كثيرٍ من الأشياء.

- «افترض». قالت: «افترض أنّهم نزلوا أرضَ الشّاطئ، وهُم يفعلون دائماً. هُم لا يعلمون أنّ الملح الخشن موجودٌ في القبو، وقد يكون الباب منتفخاً من الرّطوبة. علينا أنْ نحضر الملح، ونُلصق عليه بطاقة تعريفٍ؛ لكي لا يظنّوهُ سُكّراً، وعلينا أن نعلّق مزيداً من السّراويل؛ فليس هناك ما هو أسوأ من السّراويل المبلّلة، لكنْ ماذا لو علّقوا شِباكهم فوق أحواض الزّرع، وداسوا على كلّ شيء؟ النّاس لا يعرفون أبداً أين توجد الجذور».

وبعد مدّةٍ من الوقت أصبحت قلقةً بشأن المدخنة، ووضعت لوحةً: «لا تسحب صمّام التّهوية، فقد يصدأ ويَعْلق. إذا لم يُسحب، فقد يحدث أنْ يكون هناك عشُّ طيورٍ في المدخنة؛ أي: فيما بعد، في الرّبيع».

- «لكنْ عندئذٍ سنكون هنا». قال والد صوفيا.

- «نحن لا نعرف أبداً عن الطّيور». أجابت الجدّة، وأنزلت السّتائر قبْل موعدها المعتاد بأسبوعٍ، وغطّت النّوافذ الجنوبيّة والشّرقيّة بملاءات سريرٍ ورقيّةٍ كُتبت عليها: «لا تُزل أغطية النّوافذ، وإلّا فإنّ طيور الخريف ستطير عبْر المنزل، واستعمل كلّ شيءٍ تحتاج إليه، لكنْ يُحبّذ إحضار حطبٍ جديدٍ، والأدوات تجدها تحت طاولة العمل. تحيّات طيّبة».

- «لماذا أنتِ متعجّلةٌ هكذا؟». سألت صوفيا، وردّت جدّتها بأنّه من الجيّد إنجاز الأعمال التي يجب القيام بها قبْل أن ننساها، فأخرجت لفائف تبغ الضّيوف، والشّموع في حال عدم اشتعال المصباح، وأخفت البارومتر، وكيس النّوم، والصّندوق المصنوع من الصَدف، وضعتها جميعها تحت السّرير، وفيما بعد أخرجت البارومتر من جديد، ولم تُخفِ التّمثال، فهي تعلم أنّه لا أحد ممّن سيأتون يفهم النّحت، وكانت إضافةً إلى ذلك تعتقد أنّه لا بأس في أن يحصلوا على شيءٍ من التّربية الفنيّة، وكذلك تركت السجّاد على الأرض حتّى لا تبدو الغرفة غير ودّيّةٍ خلال الشّتاء.

عندما غُطّيت النّافذتان تغيّرت الغرفة، وصارت في الوقت نفسه تآمريّةً على نحوٍ غامضٍ، ومتوحدةً نوعاً ما.

لمّعت الجدّة مقبض الباب، ومسحت سطل القمامة بفرشاة التّنظيف، وفي اليوم التالي غسلت ثيابها جميعها في المحطبة، ثمّ أحسّت بالتّعب، ودخلت غرفة الضّيوف، التي كانت مزدحمةً جدّاً مع اقتراب الخريف، فقد غدت غرفة الضّيوف مكاناً لكلّ شيءٍ ينتظر الربيع التالي، أو لم تعُد هناك حاجةٌ إليه، وكانت الجدّة تحبّ أن تكون جزءاً من أشياء واقعيّةٍ، وقبْل أنْ تنام كانت تتمعّن بعنايةٍ في كلّ شيءٍ يحيط بها: الشّباك، وصناديق المسامير، وحزم الأسلاك والحبال، وأكياس النبات المتحلّل، وأشياء أُخرى مهمّة، وبحنانٍ غريبٍ تفحّصت لوحاتٍ بأسماء قوارب تحطّمت منذ عهدٍ طويلٍ، وبأولى التوقّعات عن «احتمال هبوب عاصفة»، وبياناتٍ عن حيوانٍ مِنْكٍ

عُثر عليه مقتولاً بالرّصاص، وعن حيوانات فقمةٍ ميتةٍ وأشياء أُخرى، وقبل كلّ شيءٍ كانت تستغرق وقتاً عند تلك الصّورة الجميلة للنّاسك في خيمته المفتوحة على بحرٍ من رمال الصّحراء مع أسده الحارس في الخلفيّة. «كيف يمكنني مغادرة هذه الغرفة؟». فكّرت الجدّة.

لم يكن من السّهل دخول الغرفة، وخلع الملابس، وفتح النّافذة للهواء اللّيليّ، لكنْ في النّهاية كان بإمكانها الاستلقاء ومدّ رجليها. أطفأت الضّوء، وسمعت صوفيا ووالدها يستعدّان للنّوم في الجهة الأُخرى من الحائط، وكانت تفوح رائحة القطران، والصّوف الرّطب، وربّما شيء من زيت التربنتين، وكان البحر ما يزال على صمته، وعندما نامت الجدّة تذكّرت وعاء المبْوَلة تحت السّرير، وكيف أنّها تكرهه؛ لأنّه رمزٌ للعجز، ولقد تقبّلته مجامَلةً؛ فالمبْوَلة شيءٌ جيّدٌ وقت العاصفة، أو المطر، لكنْ في اليوم التالي يتوجّب أنْ يحمله الشّخص حتّى البحر؛ حيث ما ينبغي إخفاؤه كلّه يشكّل عِبْئاً.

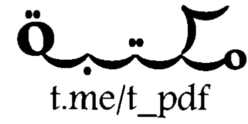
عندما استيقظت الجدّة ظلّت مستلقيةً طويلاً، وتساءلت عمّا إذا كانت ستخرج أم لا، وكانت ترى أنّ اللّيل قد هبط كثيفاً قرب الجدران، وانتظرها في الخارج، بينما كانت ساقاها تؤلمانها، وكان السُّلّم مبنيّاً بطريقةٍ خاطئةٍ: فدرجاته عاليةٌ، وهو ضيّقٌ جدّاً، ثمّ جاءت الصّخرة الجبليّة التي كانت زلقةً عندما تسير الجدّة عليها صَوب المحطبة، ثمّ عليها العودة من الطّريق نفسه. لا تشعلي المصباح اليدويّ؛ لأنّه فقط يجعلكِ تفقدين الاتّجاه والمسافة، ويقرّب الظلام، واذْلي ساقيكِ من طّرف السّرير، وانتظري حتّى تستعيدي التّوازن؛ أربع خطواتٍ إلى الباب، وافتحي المزلاج، وانتظري مرّةً أُخرى، ثمّ خمس خطواتٍ إلى الأسفل، ممسكةً بالحافّة. لم تكن الجدّة خائفةً من السّقوط، أو فقدان طريقها، إنّما كانت تعرف أنّ الظّلام مطلقٌ، وتعرف ما يحصل عندما تفقد اليد قبضتها، ولا يجد الإنسان شيئاً يمسك به. «وكيفما

يكن». قالت لنفسها: «أعرف جيّداً جدّاً كيف يبدو كلّ شيءٍ؛ لست في حاجةٍ إلى أنْ أراه». دلّت ساقيها من طرف السّرير، وانتظرت قليلاً، ثمّ سارت أربع خطواتٍ صَوب الباب، وفتحت المزلاج. كان الّليل أسْودَ، لكنّه لم يعُد دافئاً؛ فقد كانت فيه برودةٌ لطيفةٌ وحادّةٌ، وببطءٍ شديدٍ هبطت الجدّة السُّلّم، واستدارت من البيت، وتركت يدُها الحافّة، ولم يكن الأمر بالصّعوبة التي تصوّرتها، وعندما جلست القرفصاء في المحطبة عرفت أين هي تماماً: البيت، والبحر، والغابة. هناك في البعيد، في المسار البحريّ، كان يأتي صوت اصطفاقٍ من قاربٍ يمرّ عابراً، لكنّها لم تتمكّن من رؤية المنارات.

جلست الجدّة على جذع التّقطيع، وانتظرت استعادة توازنها، وقد عاد إليها بعد قليلٍ، إلّا أنّها بقيت جالسةً على كلّ حال، ومرَّ قاربُ شحنٍ شرقاً باتّجاه «كوتكا»، وبعد ذلك اختفى صوت محرّكات الوقود، وعاد الّليل صامتاً كالسّابق، وكانت تفوح رائحة الخريف، واقترب قاربٌ جديدٌ، يستعمل البنزين على الأرجح، وكان صغيراً، وقد يكون قارباً لصيد الرّنجة بمحرّك سيّارةٍ، لكنْ ليس في هذا الوقت المتأخّر من الّليل، فقد كانوا دائماً يذهبون للصّيد بعد غروب الشّمس بقليل، وعلى كلّ حالٍ لم يسِرْ هذا القارب في المسار البحريّ، إنّما سار مباشرةً إلى عرض البحر، وسمعت الاصطفاق البطيء يمرّ بالجزيرة، واستمرّ إلى الخارج، فخفقت ضربات قلب ذلك القارب العابر، وظلّت تخفق طويلاً، وبعيداً، ولم تسكت قطّ.

«أليس هذا طريفاً؟». قالت الجدّة: «إنّها خفقات قلبي، بكلّ بساطةٍ، وليس قارب صيد». تساءلت طويلاً فيما إذا كان عليها أن تذهب للنّوم أم تبقى، وخمّنت أنّها ستبقى لبعض الوقت».





توفه يانسون (1914–2001)

روائيّةٌ ورسّامةٌ من أصولٍ فنلنديّةٍ، تكتب باللّغة السّويديّة.

اشتهرت بكتاباتها للأطفال، وابتكارها لشخصيّات «المومين» التي حُوّلت إلى قصصٍ ورسومٍ متحرّكةٍ، وتُرجمت إلى عشرات اللّغات.

لها خمسُ إصداراتٍ روائيّة، أهمّها: كتاب الصّيف، الذي رسمتْ لوحاته بنفسها.

درست الرّسم والرّسم الزّيتيّ في ستوكهولم (1930–1933)، وفي هلسنكي (1934–1936)، وفي باريس (1938).

ومن بين أعمالها الفنيّة العامّة لوحاتٌ جداريّةٌ لمدينة هلسنكي (1947)، ولوحةٌ جداريّةٌ لكلّيّة كوتكا المهنيّة (1951)، ولوحةٌ جداريّةٌ لمجلس مدينة ها.

حازت العديد من الجوائز والتكريمات الأدبيّة والفنيّة، منها:

ميداليّة فنلندا الاحترافيّة لعام 1976.

جائزة هانز كريستيان أندرسون لعام 1966.

جائزة الأكاديميّة السّويديّة لعام 1972.

جائزة توبيليوس لعام 1978.

الجائزة الوطنيّة الفنلنديّة للآداب للأعوام: 1963، و1971، و1982.

جائزة هلسنكي لعام 1980.

سمير طاهر

كاتبٌ ومترجمٌ عراقيٌّ، يعيش في السّويد.

درس الّلغة العربيّة في كليّة الآداب بجامعة بغداد، ونشَط في السّويد في مجال التّرجمة والصّحافة، وكتب في الصّحافة العربيّة المقالَ الفكريَّ والسّياسيَّ، وترجم عشرات النّصوص من الّلغة السّويديّة.

صدر له:

- فلسطين والشّرق الأوسط بين الكتاب المقدّس وعلم الآثار (ترجمة. دار الكتب خان - القاهرة).
- إن كان للفأر هواجس (مجموعة قصصيّة. دار الدار - القاهرة).
- أعطني ذلك الطّفل.. أعطني رائحةً قديمةً (مجموعة شعريّة. دار المحروسة - القاهرة).



إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



صوفيا طفلةٌ جريئةٌ وحادّة الطباع، بخلاف جدّتها التي ترعاها بعد وفاة والدتها.

في كلّ صيفٍ تخوضان معاً مغامرةً جديدةً من نوعٍ مختلفٍ: كاستكشاف أجزاءٍ من الجزيرة التي تعيشان فيها، والتعرّف إلى أنواعٍ جديدةٍ من الطيور، والسباحة في الخليج الخطِر من دون عِلم والد صوفيا، والنوم في خيمةٍ، وبناء نموذجٍ مصغّرٍ لمدينة البندقيّة، وتأليف كتابٍ عن الحشرات.

ومن دون التطرّق إلى حقيقة مشاعرهما، تمضيان يومهما في حواراتٍ ونقاشاتٍ لا تنتهي عن كلّ شيء: معنى الحياة والموت، وماهيّة الله والشيطان، والجنّة والجحيم، ومفاهيم الحُبّ، والعائلة، والصداقة، والتسامح.

عبْر خلْق عالمٍ متكاملٍ في جزيرةٍ صغيرةٍ ومعزولةٍ، تكتب "توفه يانسون" -بأسلوبٍ سحريٍّ، وجُملٍ بسيطةٍ محمّلةٍ بمفاهيمَ عميقةٍ- روايةً عذبةً عن الصداقة التي تربط بين طفلةٍ تبدأ رحلتها في الحياة، وجدّتها التي تقترب من نهاية هذه الرحلة.




ISBN 978-9933-641-34-4
9 789933 641344